زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: رحمة للعالمين
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي: عبدالله تحسين علي
مقدمة: شروق المسالخي

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7435
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

رحمة للعالمين

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبو سعد

العنوان: رحمة للعالمين

لقد سرد الكاتب زهير في هذه الرواية حال الشبان الذين تهوى بهم قلوبهم الى هاوية الضياع حيث تنغمس أعمارهم الوردية في وحل الفساد، وجسدها بشخصية شاب وقع في هذا الوحل فثقلت قداماه في هذه البركة حيث الذنوب تشده الى الدرك الأسفل ورحمة الله تشده نحو التوبة ونحو الصلاح ولقد أشعرنا الكاتب بطريقة لطيفة أن الطريق الى الصواب لازال سالك مهما أشتدت علينا الذنوب وأن رحمة الله موجودة وباب التوبة لم يغلق وأن الله عفو غفور، رحمن رحيم نعصيه ويتوب علينا ويتغمدنا بستره، صلة المرء مع الله صلة لا تنقطع..... عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون. إن الكاتب زهير دائمآ يردد جملة جميلة جدآ (الحب هو الله) ما أروعها من قاعدة تحمل في طياتيها

معان لو إتبعناها لصلح حالنا وعم السلام وكنا خير أمة أخرجت، ففيها يكمن الاخلاص والصدق والتقى والرحمة والاستقامة، قاعدة تفتح كل أبوابة الجنة باتباعها فإذا أحبننا الله صدقنا وعبدنا واذا عبدنا أستقمنا واذا استقمنا صلحنا وصلح المجتمع، فنحن من نهدي ونهتدى الى الله، فالحرام بين والحلال بين، إن الله ميزنا نحن البشر عن سائر مخلوقاته فأعطى الملائكة العقل دون الغريزة، وأعطى الحيوانات الغريزة دون العقل وأعطى البشرية الغريزة والعقل،

{ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم }

فنحن من نختار طريق الصواب أم الضلال، هو الله هو الحب قرآنه غذاء الروح وذكره طمأنينة النفس. فيا ترى هل لا زال في قلوب هذه البشرية حب؟ أم نسخته ضلالة النفس هواة الدنيا؟..... لقد كان الشاب صالح بين الضياع والثبات وجلد الضمير بالتأنيب في صراع مع نفسه الأمارة بالسوء ونفسه المطمئنة التي تربى عليها في بيت عريق بالتقى والورع. تخبطت به أوجاع الذنوب والمعاصي فكان

الله أقرب إليه من حبل الوريد وقف بجسده المنهك على عتبة الندم وإذ بباب النور يفتح وباب التوبة يقول له أقبل أهلا بك، وكان لصالح أن يعود كإسمه، يدخل مطمئن عائد الى ما تربى عليه..... قال رسول الله ﷺ: يأتي زمان على أمتي القابض على دينه كالقابض على جمرة من النار. ولقد وصل بنا الفساد أن نمسك في راحة أيدينا جمرات ونشد عليها من كثرة الفتن والمحرمات المحاطة بالبشرية.....

شروق المسالخي

إهداء

إلى الله ،

إلى الحب ،

إلى النور .

تُسعفُنَا الأَسرّة عندما تَشكو الأجساد مَا بهَا من تَعب ، نُنيخُ أحمال ما جَنيناهُ من سَكتَاتٍ قَلبية على أعتاب الإيمَان المُترسب في غَياهب عَقائدنَا ، و نَنتظر كُل ما لا نَتوقعهُ من أُمور حَاكهَا اللهُ على سنارتَي القَضَاء و القَدر ..

على مَقاسنَا هَذه الحَياة تَمَاماً ..

و لكنَ مَطَامعنا أَكبر بكَثير من رغبتنا للحَياة ذَاتهَا ، لأَننا بالأَحرى نُحبُ سمة الاستملاك في كُل شَيء ، في الرغبات و الشَهَوات في التَركَات و الموجودات ، أَمراضٌ نَحنُ من نَجلبهَا لإشبَاع ذَاكَ النَقص الذي هُوَ بالأصل خَارج نطَاق هَذا الجَسد، مَرض تَمسهُ الحَواس بل تَمسهُ القَلوب و تُؤذي غَيرها كمَا تُؤذي رَوحانيتنا ..

كَالطَمع مَثَلاً ..

يَكون ذَاكَ المَرض عَلقة مُعلقة في أَرحام الأهواء ، و نَبدأُ نَعلفُ به بإرادةٍ منَا ، لنَستعمل أَدوات عدة و نبرع بالصَيد و المُطَاردة و إشباع فُتَات ذَلكَ الفَيروس بكُل أداة جَارحة ..

يُغيّبُ العَقلُ بخمرة الطَمع ، و بَعد ذَلكَ يُطرد الضمير من أَروقة المَنطق ، و تُضحي الإنسانية كَنملة عَرجَاء لا تَقوى في رحَاب التَقوى ..

تَنزفُ الرُوح على كوكَب الأشباح من تلكَ الجراح التي سَببها الإنسان لنفسه من أشياء يَحسُبهُا هَينة و هي عند الله أَمرٌ عَظيم..

لا تُجففوا نَزفَكُم بالصَمت سَادَتي ، هَذه الجراح بحَاجة إلى مناديل الحُب التي كَانت أنقى عندَ خُروجكَ إلى مَا تَظنهُ هَذه الحَياة، وأنها هي لكَ أبقى ..

لا بَقاء لأَحد على هَذه البَسيطة ..

ضَع في أُذن قَلبكَ بأنَ البقاء للحُب فقط ..

الحُب الذي استبدلتَهُ بالشَر ، هَذه المَواد التي لا تُرى بالعَين المُجردة ، بل تُنجبُهَا المَواقف المَشوبة بالنُور و الظَلام ، كُل إنسَان لهُ تَعريفهُ الجيولوجي للنَور و الظَلام ، فَرُبمَا نُورك ظَلامٌ بالنسبة لي و رُبمَا العَكسُ صَحيح ، و هَكذا تَتَهافت التَعاريف و المُحَاضَرات و الدُروس الرُوحية في كُل أصَقاع الأرض كَي يَحلَ السَلام ، و الجَميع يُصَلي لله كَي يَعم النُور ، و كُلٌ لهُ وجهتهُ وهُوَ مُوَليهَا ..

فاسَتبقوا الخَيرات يا أُولي الألباب ..

اتخذَ الألبابُ من أَنفُسهم أولياء و قديسين يُنافحونَ عن أُلوهية و رُبوبية الله ، و اللهُ غَنيٌ عنهُم لو كَانوا يَعلمون ،

هُم يَعلمونَ و لكنَهُم يَتغابونَ على الوَاقع و على بسَاطَة البَشَر حتى اتَخذوا أَرباباً من دُون الله ليُقربوهُم إلى الله زُلفاً..

و أَعود إلى الكَلمة مَرةً أُخرى كَي تُسعفني إلى النَجَاة ، كُل الكَلمَات التي نَعتقدُ بأنهَا جُزءٌ من النَجاة مَعقودة بالمَاضي و المَسَافات و الأمكنة ، تَتَساءل الروح من بَعد أن شَارفت على الفراق بكَافَة ضَبابهَا كَيفَ سَتواجه الله!!..

هَل الكَلمات تَنفع صَاحبها يَومَ الزحام !! ..

و هَل أنَا أنفع بَينَ كُومبارس ذَاكَ الزحام !! ..

أسئلة مُتراكمة في خزانة النَفس بحَاجة إلى إعادة هَيكلة و تَرتيب ، خزانة مُبعثر كُل مَا بهَا ، و أجوبة مُمَزقة لا بُدَ من حَبك مَاهيتهَا بأَيّ سَبيل كَان ، و غَسلِهَا مَرة أُخرى و كَيهَا ، لأنَّ الرَحيل قد أَزِفَ ، و أوَشَك الجَسدُ على التآكُل ، لأَني أسمعُ بَحيحَ القبور ونواحهَا كُلّمَا أَختلي بذَاتي تَقول :

ـ هَل من مَزيد !! ..

نَعم حُفرة تُرابية في دَركهَا جُندٌ من جُنود الله كَالديدان التي تَستطَيع سَحقهَا بأي مُبيد حَشَري ، و لكن يا مسكين من سَوفَ يُنقذُكَ !!

قَالوا لي بأنَّ شَيئاً وَاحداً سيُنجدُكَ ، تَشَبثَتُ بنجدتهم ذَاتَ خَبر و لم يُخبروني ، لأنَ من يُحبُني بصدق غَيبهُ التُراب و فارقَ الأحباب ، و بدأَتُ عُزلتي الفكرية مُتحاشياً ظُنونهُم و أَطماعهُم و ادعاءات أنوارهم و ظُلمَاتهم ..

فَالبحثُ عن النُور الذي سَأُواجهُ به من أَوجد هَذه المَوجودات لا يَحتاجُ إلى تَنقيب أو حَتى تَجاهُل ، بل نَحنُ بأمس الحَاجة للصدق مَع الذَات و النفس البَشَرية و صَفاء الرُوح ، فكان مَا كنتُ أُريدهُ ألا و هيَ الخَلوة بَعيداً عن أَنظَار النَاس و شَراهَة ظُنونهم ، لقد شَارفَ عَقلي على الانهيار بَسبب تَراكُم الأهواء و الأَفكَار و البَحث العلمي ، و ما أنهَيتُ بَحثاً حتى فُتحَ لَي ألفَ باب للبَحث العلمي و الفكري ..

استنجدَتُ بالابتعاد عن المَباحث و الأوراق و الكُتُب ، أُريدُ سَاعة صَفاء بمعنى الكَلمة ، دَقيقة صَمت مع كُل أَجزاء ذَاتي المَلموسَة و المَحسوُسة ، و لكني دَائماً أقول، نَحنُ ضَحَايا أَفكار من قَبلنَا من الأُمَم السَالفة ، نُقاتلُ عنهُم و هُم في فنَاء قُبورهم يَتوسَدونَ كُلَ هَذا الخَراب في هَذا العَالم ، و

قد غَابت عُقول المُخدرينَ عَقدياً و فكرياً بأنَ هَذا الدَمَار على كَوكب الحُب أسَاسهُ :

فكرة ..

ألقيتُ كُلَ أفكَاري خَارجَ هَذا الجَسد ، أُريد أَن أعود فطريَّ الطُفولة ، أَكبر أحلامي كَانت مَتى سَوف يَخرج النَهار كَي آخُذ مَصروفي اليَومي من أَبي و ألهو بالقطعة النَقدية كَيفَ أشَاء ، أُقَسمُهَا إلى قطع نَقدية أَصغر ، أُخبئُ النصف جَانباً حَتى يكتمل نصَاب التَذكرة التي سَوف أدخُل بهَا إلى المَسبح ، و النصف الآخَر أَعيثُ بهَا في الأرض فَسَاداً و إفساداً ، كَأن أَشتري نَوعاً من المَوالح الغَير مُقشرة ، و أُلقي بالقشر في كريدور المَدرسة أو أشتري كيسَ (شبس) و ألتَهمهُ وَحدي مُتَخفياً عن أَعيُن الطَلبة الفُضُوليين كَي لا أسمعُ أحداً منهُم يطلبُ مني قطعة شبس واحدة ، كُنتُ أُحبُ الاستملاك في الشَر و اللذة و الخَراب ، طفلٌ ولدَ على الفطرة كَان دَائماً يَقول : هَل هناكَ خَراب أكثر من ذَلك !!

نَعم هُنَاك خَرابٌ عَظيم ..

أعظم من أن يُضرب زلزالٌ في أَحد القَارات ، أو أن يَجرُفَ إعصَارٌ أحد المَزَارع ، أو أن يُغرقَ طُوفان مَباني مَأهولة بالسُكَان ..

هُنَاك عَظمةٌ مَعقودة بالطَبيعة ، تَأمرُ و تنهَى و تَسيرُ و تَتَوقفُ بإذن عَلام الغُيوب ، وهُنَا أيضاً نَفسٌ بَشَرية مُرتَبطة ارتباطاً جَازماً بخَياراتكَ، كَأنَ تتذوقَ المَمنوع و هُوَ حَرام ، و أن تَمتنع عن المَسموح لأَنهُ حَلال ، و تَخوض في هَذا الكَون ثَعلباً مَاكراً تَخشَاكَ الثَعالبُ و تُغَيرُ مسَارَ طَريقهَا لأنَكَ أشَدُ مكَراً ..

تَوقف عند قَوله تَعَالى :

و يمكرونَ و يَمكُر الله و الله خَيرُ المَاكَرين ..

إنَ هَذه النَفس الأمَارة بالسُوء سَوفَ تُرديكَ إلى الهَلاك ، تَقطَعُ مَعَها مَا نَهى اللهُ عنهُ ، و تَغتسل بكُل مَا هُوَ حَرام ، و تَسهر و تسكر و تَغُيب العَقل و تُضيع حُقوقَ نَفسك تجَاه الله و تَجاهَ ذَاتكَ التي لم تُنصفهَا و لن تُنصفهَا أَبداً..

ليالٍ حَمراء تَحسُبهَا تَحرُراً و تَدثُراً بالمَلذَات ، و يجرِفُكَ الغَرور في عَالم الغُرور ، و تَسحبُكَ الأجسادُ البَيضَاء و

الأَجسامُ المَفتولة ، و تَطرقُ الكُؤوس نخبَ نصركَ على كَسر الحَواجز التي نَهاكَ اللهُ أن تَأتِهَا ، و خُضتَ فيهَا و تَجَبرت و تَكبرت و غَرتكَ الأَمَاني حَتى جَلبتَ لقَلبكَ الوَهن..

ذَاكَ الوَهن الذي لا يَدخُل مَخَابئ النَفس إلا خَوفاً و هَزيمةً من القَادم ، فَأنتَ مَهزوم بعَد أن أوقَعتكَ الظُنون ، و بمن تَظُن ! ..

بالنَاس مَثلاً !! ..

مَاذا سَيفعلُ لكَ النَاسُ من بَعد أن سَلّمتَ رَقبتكَ لمَلذاتهم ! ، للأصَدقاء مَثلاً !؟ ..

لن يَفعلَ الأصدقاء لكَ شَيئاً لأنهُم غَارقين معكَ في البُؤرة ذَاتهَا من الفَسَاد ، و لو كَان فيهم خَيرٌ لمَا أوصَلوكَ إلى قَارعة الوَهن و الوَهم ، رُبمَا لم تَسمع مَا قَالهُ رَسول الله لابنته فَاطمة :

يا فَاطمة بنت مُحمد، اعملي فَإني لا أُغني عنكِ من الله شَيئاً..

يا حسرةً وألفَ حَسرةٍ عَليكَ و عَلى مَا جَنتهُ نَفسكَ من درَنٍ و عُطونة و فسَاد ، سَتقفُ خَلفَ كُل قَافية تَنتَظرُ كُل ثَانية أن

يَحلَ السَلامُ بصَدركَ ، و أنتَ جَالسٌ على أحد شُرفِ بَيتكَ تَشربُ مَشروبكَ البرجوازي حَيثُ يُسمع أذانُ الفَجر يَضَخُ في قَعر صَدركَ و يَهزُ كُل مَا لا تَرجوهُ :

ـ حَي على الصَلاة ، حَيَ على الفَلاح ..

تَرفعُ كأسَكَ للسَمَاء ، و تَتَجبر على من لبى النِدَاء ، سَوفَ تَرى جُموعَ المُؤمنين يحثُونَ خُطَاهُم إلى بيوت الله ، يتراقصُ معهُم النُور و يَهبُ من كُل الأَزقة العَتيقة كَأنهَا نَفحَات تَشتاقُ لهَا ، سَوفَ تَراهَا تتراكضُ بأبهَة الدَمع حتى تهطُل على خدكَ دمعة ، هَل تَرى تلكَ الدَمعة ! ..

إنهَا بمَثابة عَودةٍ تَشفعُ لكَ عندَ الله ..

هَل تُريد الله !؟ ..

نعم ، و اللهُ يُريدُ مجَيئكَ ، هَل تشَتاقُ لهُ !؟ ، و اللهُ مُشَتاق لصوتكَ في مَحرابه ، تُنَاجيه و تُنَاديه و تُخضبُ نَدمكَ بالنَدم على مَا فَات ، أما آنَ لكَ أن تَعودَ إلى تلكَ المَسَاجد ! ، إلى الصَف الأول! ، إلى مصحفكَ و سُبحَتكَ ! ، فمنذُ أن أُستشهدَ وَالدك الصَالح الذي كَانَ يحَلم أن تَخرُجَ صَالحاً ..

مَاذا دَهَاك يا صَالح !!

تأسياً برؤيا شَاهدها وَالدكَ بعدَ صَلاة الفَجر في مَسجد خَالد بن الوليد في حِمص العَدية ، و جَلسَ أمَامَ مَقام أبي الوَليد يُرتلُ آياتٍ من الذكر الحَكيم و يَدعوا الله أن يَرزقهُ صَبياً من بعد أن رَزقهُ بأربعةٍ من البنات ، هُنَاك و على مَقرُبة من المَقام مَاجَت الأنوار في لَحظة انبثاق ضياء النَبي المُختار ، و هَبت نَوافذ المَقام تَمدحُ بمجيء النبي العدنان ، و قامت القيامة في لَحظة المنَامة ، و تَدلتَ نُجوم السَماء كَثُريات مُتوهجة ، و الشَمسُ و القمرُ بحُسبان ، و اصطفت الكَواكب كَأنها سُبحة في خَيط نُور تَشدو كُلمَا عَمَّ البخور ، و صَاحت الدُنيا تُنشدُ للحَبيب المُصطَفى :

أمن تَذكَّر جيران بذي سَلم ..

مَزجت دمعاً جَرى من مُقلة بدم ..

أم هَبت الريحُ من تلقاء كَاظمة ..

وَ أومَضَ البرقُ في الظُلمَاء من إضَم ..

فما لعَينَيكَ إن قُلتَ أكفُفَا هَمَتا ..

و مَا لقلبكَ إن قُلتَ استفق بهم ..

أيحسَبُ الصَبُ أنَّ الحُب مُنكتمٌ ..

ما بَينَ مُنسَجم منهُ و مُضطرم ..

لو لا الهَوى لم تَرُق دمعاً على طَلل ..

و لا أرقتُ لذكر البان و العَلم ..

لن تَذَكُر مَا شَهدهُ أباكَ قَبل أن تَأتي إلى هَذه الدُنَيا ، لقد كُنتَ مُضغة قَبل أن تَكونَ عَلقة ، كَانت أُمُكَ تَنتَظرُ أباكَ في غُرفة العَبادة ، و أَخواتك قَد هَرعنَ إلى النَوم من بَعد أن صَلينَ الفجر ، كَانَ الأملُ بالله كَبيراً ..

كَبيراً جداً ، أكبر من قيامكَ في المَلاهي الليلة في عَاصمة الفَاتح في استانبول ، كَانَ أكبرُ من تَجرُعكَ للمشَروبات الرُوحية ، كَانَ أكبرُ من تَلوث قَلبكَ بالبُعد عن الله ، أكبر من المسَافة التي قَطعتها هُروباً من الحرب أماناً بالسلام ، أكبر من الدماء التي تَقاطَرت في بلادكَ ، أكبر بكَثير من الأجساد التي ضَاجَعتهَا على أسرة الهَوى ، أكبر من المَبلغ الذي نَصبتَ عَليه من أعز صديق لكَ عند خُروجك من عَاصمة الوَليد ..

أكبر من أحلامكَ المُمَزقة و أهواءكَ المَشبوهة ..

هَل بَقي لكَ ضَمير ، متى آخر مَرة رَفعتَ هَاتفكَ على أخواتكَ اللواتي شَتتهُنَ الضياع و اللجوء في لبُنان الشَقيق !!

، مَتى آخر مَرة سَمعتَ بهَا صَوتَ أُمكَ التي قدَمت رُوحَهَا من أَجلك !؟ .

و هل سَتنفَعُكَ .. مَتى ! ..

سَيأتَي ذَلكَ اليَوم الذي لا يَنفعُ فيهِ مالٌ و لا بنَونَ إلا من أتى الله بقلبٍ سَليم ، سَيأتي لا مَحَالة ، أخَبرني كَيفَ الطَقسُ عندكَ !؟

نَسيتُ أنكَ في حَالة سَكر و غَرق إلى أَخمص قدَمَيكَ ، ما عَلينَا ..

أنا أَعلم بأنَكَ لسَتَ بحَاجة لي ..

و لكن يا صَديقي أنَا بحَاجَة إلى قَلبكَ ، أُريدُ أن آخُذَكَ معي إلى الحَبيب المُصطفى رحلة حَيثُ النُور ، أَرجوك لا تَتَكلم..

أنصت و اصمت ..

- و لكن ..

كَانت الخَمرة قَد أرهقت عَاتقَهُ و تَشَظت الريحُ من كُل منَافذ جَسده :

- و لكَن مَاذا !؟ ..

أَشعُر بأنهُ سَوفَ يستَفرغ ، فلقد أَلجمهُ التَمايلُ يمنَة و يسَرى:

- و لكن أنَا في حَالة سَكر !! ..

ضَحكتُ و مَاجت أنوار الفَجر حَيثُ يُسمع صَوتَ إقامة صَلاة الفجَر :

اللهُ اَكبرُ اللهُ أَكبر ..

أَشهدُ أنَ لا إله إلا الله ، أَشهَدُ أنَ مُحَمداً رَسول الله ..

حَي عَلى الصَلاة ، حيَّ على الفَلاح ..

قدَ قامت الصَلاةُ قد قامت الصَلاة ..

اللهُ أَكبرُ اللهُ أَكبر ، لا إله إلا الله ..

شُدت مَشَاعرهُ إلى صَوت الحَق يَصدحُ بصَوت الإقامة ، شَعرتُ برجفة تَخللت جَسدهُ ، و العَرقُ يَتَصبُ من جَبينه ، سحبتُ منديلاً من جَيبي و مسَحتُ جَبينهُ ، سَمعتُ في صَدره غَصة كتلكَ التي تَأتي قَبل أن يَنفجر بالبُكاء ، لعَلها غَصَة الرجُل قبل أن يَجهش بالعَويل ..

أَمسكتُ بيده :

ـ إلى أين تَأخُذني يا أنَا !؟

تبسَمتُ في وَجهي ، و عَرفَ بأنَني أنَا هُوَ و هُوَ أنَا ، ضَممتُ ذَاتي في وَقتٍ كنتُ بحَاجةٍ إلى من يَحتضَنُ انكسَاري ، لقد فَاضَت الأسواق بزينة رَمضَان في كُل مَكان ، و عمت الشَوارعُ بالمُؤمنين و المُتبضعين ، و أنَا هُوَ ذَاكَ

الفَتى الذي كَانَ يَخرُجُ مع أُمه إلى سُوق حِمص العَتيق يَحملُ عن أُمه أكياس الإفطَار و السحور ، أَمشي خَلفهَا و لا تَسمعُ لي هَمساً ، لأَن رَفعَ الصوت في مَقام الأُمومة جَريمة..

أَجرُ تَعبي مُتَخللاً الأسَواق العَتيقة حَتى يَصل بنَا المَطَاف إلى مَسجد سَيدي خَالد بن الوَليد ، أَدخلُ مَعها إلى صَحن المسجد :

ـ الله يَعطيك العَافية يا أمي ، يلا رُوح تَوضَأ قَبل ما يؤذن العَصر ..

أَضعُ الأكياس جَانباً أُشَمرُ عن سَاعدي و أَغسلُ تَعبي ، لم يَكُن هُنَاك تَعبٌ مُلقى على عَاتقي سوى مَا حَملتُ من أَكياس ، ليتَ الزَمانُ يَعودُ يَوماً حَتى أَحملُ أَكياس حِمص من بَابهَا إلى محرابهَا ..

أَتوضأُ و أُصَلي ، لأنَ أبا صَالح مَعروف بصلاحه فلا أُريد أن يَنحني ظَهرهُ و ابنهُ بعيد عن الله ، فلقد كَانت الفطرة مُعلقة على مَقاس خَوفنَا من النَاس ..

تُنَاديني أُمي من بَعد أن صَلت الظُهر :

ـ أيوة يا أمي ..

تُعطيني مَبلغاً من المَال قَد لُفَّ بإحكام ، أوراقٌ نَقديةٌ كُنتُ أحلُم أن يَكون عندي مثلهَا ، أَحملهُا أتفاخر بهَا أمَامَ الأصدقاء :

ـ خُود يا أمي هَالمصَاري و حُطن بالمَقام ..

أَجري بسُرعة الصَادق الأَمين ، كَالذي يُريد أن يُزيح عن قَلبه همَّ هَذا المَال ، أَخشَى من أن أعرف هَذا المَبلغ ، و أخشى من أن يُفلتَ من يَدي ، أصلُ إلى المَقام و أُلقي بالمَال و أقفُ خَائفاً أمَامَ مولانا خَالدٍ و أَقرأُ الفَاتحة كمَا جَرت العَادة المُتوارثة بينَ أَهل حِمص و أَخفضُ رَأسي هَيبةً و إجلالاً لسَيدنا خَالد بن الوَليد ..

هَل تَعلم يا صَالح من كَانَ يَتصَفحُ كتَابَ الله و يُرتَلهُ بعد كُل فَجر مُتوسلاً بصَاحب المَقام و النبي العَدنان !؟ ..

هَل تَعلم من كانَ يُناجي الله لأن رَزقتني صالحاً لأَكونَ من الشَاكرين !؟

إنهُ أبوكَ ، الرجُل الصَالح أَبو صَالح الكحيل ..

بائع الألبان و الأَجبان في السُوق العَتيق ، كَانَ يُمرغُ وَجههُ بالخَوف من الله بأن يمرَ هَذا العُمر و لم يُرزق بصبي يَحملُ اسمهُ و يُعينهُ على كبره ..

جَاءهُ النبي في رُؤيا النَجي ، يُزيلُ عنهُ الستَارة ، و يَهمسُ في أُذنه بالبشَارة ، و ليُشَرق قَلبكَ بما تَتَمنى ، و يُكشَفُ مَا كُنتَ تَخشَاهُ من مُضي العُمر بينَ البنَات و ليُسَر قَلبكَ بمن يُعين البنَات ، فَزعَ وَالدكَ بُرؤية الحَبيب المُصطفى كَأنهُ قمر و هَبط بجوار مَقام أبا الوَليد :

ـ السَلامُ عَليكُم و رَحمة الله ..

وَقفت الأنفاسُ من بعد أن ابتلت بالخُشوع ، و غَرقَ أبوكَ في وَحل عَرقه مُتشَردقاً بالنُور ، ظَنَ وَالدكَ بأنهُ صَاحب المَقام :

ـ و عَليكُم السَلام و رَحمة الله و بَركاتهُ .. مين ! ، سَيدنَا خَالد ابنَ الوَليد !؟ ..

تَبسمَ مولانا رَسول الله في وَجهه و اقترب إليه يَمسحُ من جَبينه عَرقهُ كَما مَسحتُ لكَ عَرقكَ :

ـ أنَا مُحمد ابن عَبد الله ، نَبي الله و رَسوله ..

صَرخَ أبوكَ كَأن الجُنون أغرقه و انفَجر :

اللهُ أكبر .. اللهُ أكبر .. سيدنا رَسول الله ..

مَاجت الأَشواقُ تَزحفُ بلهفة ..
تَتَرنحُ شبوب الأنوار بينَ مَفاصل الرُوح ..
و تَعجُ مَنافس الخُشوع تَتَلوى كَأمواج عَارمة تَلطُم القَلب بقوة ، و تَدفعُ الحَواس إلى التَبرُك بسَيد الناس ..
يَقومُ أبوكَ باكياً لينهَالَ بُكل وَجعه مُنكباً عَلى قدَم الحَبيب المُصطَفى ، يُمرغُ جُعودةَ وَجهه بينَ الأقدام ، يَتَوسدُ عُنفوان المسك الذي يَتَطايرُ كَأنهُ أسرابُ غَفوةٍ تَنحدرُ إلى مَكَامن الرُوح ..
ـ قُم يا أبا صَالح !!
أبوكَ الصَالح الذي انحدرَ من ظَهر رَجُل صَالح و أم أشَدُ صَلاحاً ، أبوكَ الذي شَدَ أحمالهُ كُلَ فَجر قَاصداً مَا قدَسَهُ اللهُ من أَمكنة ، أبوكَ الذي سُويت به الأَرضُ بعدما أتَيت و قالَ حينهَا :
ـ الحَمدُ لله الذي رَزقني صَالحاً و جَعلني من التائبين ، الآنَ أصبح لبنَاتي أخٌ يَحفَظُهنَ بَعد مَوتي ..
أَبوكَ يا صَالح بائع الأَجبان و الألبان الذي مَا أدخلَ إلى بَيته لُقمة حَرام ، كَانَ يتَحرى مَا رزَقهُ الله كَي لا يُؤنبهُ ضَميرهُ ، و لكن يا فتى أينَ ضَميرُكَ الآن !..

هَل غَيبتهُ السَكرة و أضَمحلت مع الفكرة !؟ .

أبوكَ يا صَالح الذي يَصلحُ لكُل شَيء ، بَأخلاقه و قَلبه و سعة صَدره ، فكم من مَديون لدَيه سَامحهُ لوَجه الله ، و كم من فَقير أقامهُ بإذن الله ، و كم من مَلهُوف سَاعدهُ برحمة الله ، و كم من مَكروب قومهُ بحُب الله ، هُوَ صَاحب الصَوت الجَميل الذي يَتَرنحُ بصوت الحَبيب المُصطفى في مَجالس الذكر ..

أَعطاهُ الكَريمُ صَوتاً يَصدحُ بنسم الحَبيب ، يُقيمُ للنبي حَفلاً ، و يَرفعُ بمَقامه شَأناً ، ويَدعوا لحُبه جَيشاً ، و يَحشدُ تحتَ اسمه عَرشاً ، و تَتأرجَحُ القُلوب تَحت هَبوب عَلاّمِ الغيوب ، و تَقومُ في مَجَالسه أصواتٌ تُناجي القُلوبَ في الهَواء ، و تَعصُفَ بجلد من قَست أَرواحهُم ، و تَقومَ قيامة الأفواه بمدح صَاحب الأقداح :

مُحمدٌ سَيدُ الكَونَين و الثَقلين ..

و الفَريقين من عُرب و من عَجم ..

نَبينَا الآمر النَاهي فَلا أَحدٌ ..

أَبرَّ في قَول منهُ و لا نَعم ..

هُوَ الحَبيبُ الذي تُرجَى شَفاعتهُ ..

لكُل هَول من الأَهوال مُقتحم ..
دَعا إلى الله فالمُستَمسكونَ به ..
مُستَمسكونَ بَحبل غَير مُنفصم ..
فَاقَ النَبيينَ في خْلق و في خُلق ..
و لم يُدانوهُ في علم و في كَرم ..
أبوكَ الذي أتاهُ الحَبيب في رُؤياهُ و لكَأنهُ بَدرٌ سَقطَ من السمَاء ، كَيفَ لا و هُوَ الذي قَال :
يُحشَر المرَءُ مع من أَحب ..
كَانَ يَرفعُ يديهِ بَعد كُل صَلاة يَدعو الله بزَيارةٍ إلى حَرمه الشَريف في مَسجده العَفيف في المَدينة المُنورة ، كَيفَ لا و أبوكَ حَبيبٌ للرحَمن ، يُجيب الداعي إذا دَعاهُ و يَكشف كُربةَ المكلوم و يُنفسُ خَنقةَ المَظلوم ..
يزور بيتَ الله الحَرام و من بَعدهَا يدخُل أبوكَ المَدينة حَافياً باكياً و الخَشية تَضربُ على جَلده كما تُضربُ الأكُف بالدَف ، يأوي إلى الفُندق قَبل أن يَهُزَ وَجدهُ إلى مَسجد النَبي ، يَغتسلُ غُسلَ النُور ، ويُغدق على جَسده بالعُطور و البُخور ، و يلبس بالبياض اقتفاءً بالنَبي العَدنان :
ـ البسوا البياض و كَفنوا به مواتَاكُم ..

و يَمشي حَافياً إلى باب السَلام يُرتلُ سَورة يآسين ، مُطأطأً رَأسهُ لاهجاً بصَوته بالصَلاة على النبي مُحمد و آل النبي مُحمد ..

إنهُ أبوكَ الذي أجهدهُ التَعبُ على تَربيتكَ ، ذَاكَ الصَالح الذي كُني بأبي صَالح لم يَترُك مَكاناً يَنزلُ به الرَحمات إلا و دَعا الله :

- ربي لا تَذرني فَرداً و أنتَ خَير الوَارثين ..

أعطاهُ اللهُ إياكَ ، فما كَانَ منكَ إلا و ابتلاكَ ..

هَجرتَ محراب الله ، و هَرعتَ مع أعداء الله ، و تَعديتَ حُدودَ الله ، فما كَانَ من الله إلا أن تَناسَاكَ ، و ألقى بكَ من عُلو تَجاهُل ..

إنهُ أبوكَ الذي أتاهُ الحَبيبُ المُصطفى في رُؤياهُ :

- ارفع رَأسكَ يا أبا صَالح ، أتَيتُكَ لأُبشركُ بصَالح ، فَأكثر من العَمل الصَالح ، تَكُن لكَ الدُنَيا و الآخرة و كُل المصَالح ، اجعل الصَلاح سُبحتكَ ، و الخَير مَطيتَكَ ، و الذُل حُجتكَ ، و الإيمَان قبلتكَ ، ارفق فإنَ الرفق بالغَير نُور يَوم تُغلقُ منافذ النُور ، و اجلب الخَير لبيتكَ ما اسَتطعت فالبنَاتُ جَنة

و الشَابُ جَنة ، فَأحسن العَدل يرفعُكَ اللهُ يَوم العَدل ، و تباكَى مَا استَطعت سَاجداً يُعلي اللهُ مَقامكَ يومَ الندامة ..

يَستمعُ أبوكَ إلى سَيدَ النُور و الدَمعُ أغرقهُ إلى مَكامل الصَمت ، يَهزُ برأسه مُوافقاً على النَصيحة :

ـ و مَا هي العَلامة يا رَسول الله ..

يَبتسم بَدر الدُجى و تَنشَقُ مَلاعج القَلب بَهجةً بأُبهة النواجذ النَبوية :

ـ العَلامة يَوم أراكَ يَومَ القيامة بدمكَ مُخضَباً ، و شَهيداً مُمَدداً ، أقولُ بالقَوم من هَذا ! ، يَقولونَ لي : إنهُ أبو صَالح..

يَهزُ الصَدر عَويلاً ، و يتَجمدُ الهَواءُ عَليلاً ، و تَشقى الكَلماتُ في رحَاب سَيد الأرض و السمَاوات :

ـ و هَل أموتُ شَهيداً يا رَسول الله !؟ ..

يُربتُ النبيُ على كَتفه أن لا خَوفٌ عَليكَ و لا أنتَ من المَحزونين ..

إنهُ أَبوكَ ..

هيّا قُم مَعي إلى المُغتسل ، استحمَّ لكَي تُزيل مُسوحَ السُكَر من وَجهكَ ، أُريد التَحدُثَ مَعكَ ، يَجب أن تَعرف أنَ رَمضَان على الأَبواب ، بَعد غد سيُوَافينَا بكَرمهِ و هَدية الرَحمن لعياله ..

ألم تَجذبكَ الأَشواق إلى سَيد العُشَاق ! ، مولاكَ رسَول الله ، النبي الهَادي الصَادق الأمين ! ، الم تُرِد مجالسَة الحَبيب مع صَوت مُوشَح أبيكَ لمَدح السَيد الطَبيب قُبيلَ كُل فَجر ! ، ألم يَهوي بكَ الفُؤاد لمُجَالسَة الأهل و الأَحباب حَولَ مَائدة الاسحَار ! ، ألم تَهفو رُوحكَ إلى صَلاة الفَجر و التَراويح و الوتر ! ..

أَخبرني ألم !! ..

مَا ألمَ بكَ أُيهُا الألم !! ..

تلكَ المسكينة التي تَركتهَا للذُهول ، و أَمسَكتَ مقبضَ حَقيبتكَ و سرتَ و لم تَلتفت خَلفكَ إلى من جَردتهَا حَقهَا في رُؤياكَ ..

ألم تَرهَا ! ..

تلكَ التي وَصَفها الذي بُعثَ رَحمةً للعَالمين بأنهَا أَحق النَاس بُصَحبتهَا ، حَيثُ جَاء رَجل إلى رسول الله صلى الله عَليه و سَلم فقال :

يا رسَول الله من أَحقُ الناس بصُحبتي ؟

قال : أُمكَ ، قَال : ثَمَ من ! ، قال : أُمُكَ ، قَال : ثُم من : قَال: أُمكَ ، قَال : ثُمَ من ! ، قال : أباك ..

كَانَ هَمُكَ يَحملُ هَمهنُ جَميعاً ، هَمُكَ أن تَراكَ رَجُلاً تُسند أباكَ في كبره ، كَبرت و يا لَيتَكَ بقيتَ صَغيراً تَلعبُ مع أَطفال الحَي في زُقاق الحَي ، كَانت الأُمنيات مُقسَمة كما الارزاق ، و لكنَ الطَمع أَكبر من كُل الاَمَاني و من كُل الذكريات ..

لن تُفيد الذكريات شَاب أفرغَ في جَوفه قَوارير الخَمرة و رَفع لله نَخب نَصره على أهوائه ، هَل تُريد أن يُمرغَ اللهُ أنفكَ في التُراب من بعد أن رَفع اسَمكَ و أعَلى شأنَ أهَلكَ و جَعلكَ خَلفاً لخَير سلف ، هَل أنتَ من السَلف الذي كَان يُنادي أباكَ بأَعلى صَوته : يا صَالح ..

يا أبا صَالح نَم في قَبرك فقد مَاتَ صَالح مُذ أن خَلعَ ثَواب الصَلاح ، اليوم و من بعد أن تَرنح بالذُنوب و تَخمرَ

بالنَجس و تَشربَ بالعَفن .. هَا هُوَ صَالحٌ سَكران على صَوت الأذان ، يُسَامرُ الوَحدة خَارجَ بلاده حَيران ، لا يعَرفُ مَاذَا يَصنع و إلى أَينَ سَوفَ يُوجهُ وجهتهُ ، و لكن لسعَات من القَشعريرة لا زَالت تَسري تحتَ شَواطئ جلده ، تَسيرُ حَافية أو رَاكبة أو زَاحفة ، تَأتيه كُلمَا مَرت مَسَامعهُ بصوت قُرآن تُعيدهُ إلى مَجَالس النَبي العَدنَان ، تَهمسُ في طبلة قَلبه :

ألم يأن للذينَ آمنوا أن تَخشَع قُلوبُهم لذكر الله و مَا نَزَلَ من الحَق ، و لا يَكونوا كَالذينَ أُوتوا الكتَابَ من قَبل فطَالَ عَليهم الأَمد فقسَت قُلوبهم ، و كَثيرٌ منهُم فاسقون ..

تَطير القُلوب في أعاصير كَلام الله ، تُعليه إلى عُلو لا يَحلمُ أن يَصل أَحد إليه و تُلقي به أَرضاً يتَهاوى و يتَهَاوى و يَهبُط و يَهبُط كَأنها آخر مَشهد لهُ في الحَياة ، إنهَا لَيست حَياة كَمَا تَظُن بل :

تلكَ الدَار الآخرة نَجعلُهَا للذَين لا يُريدُون عُلواً في الأَرض و لا فَسَاداً و العَاقبة للمُتَقين ..

أخبرني ألم !! ..

ألم تَجمع كُل سَنة مَالاً من تَعبكَ و مَصروفكَ الخَاص كَي تُوزعهُ بينَ أَخواتكَ بالتَسَاوي فيَكبُر ذَلكَ في قَلب أبيكَ و يُعظمهُ في جَوفه و يقول :

هَذا هُوَ صَالح الذي بشَرني به الحَبيب ..

لم تَكُن تَعرف من هُوَ الحَبيب ، الآن تَعرفهُ و لا تُريد التعَرُفَ عَليه ، إنَكَ تَخشَى مُوَاجهته ، دَائماً الظَلام يضعُف أمَامَ أَول بصيص نُور ..

هَل تَخافهُ أم تَخاف من جَوفكَ الذي يتَلاطمُ جُبناً ..

هَيا يا صَالح قُم على قَدَميكَ ، وَاجه هَذا الكَون بضَعفكَ و انكسَر صَامتاً أمَامَ عَظَمته ، كُن النَقيض في ثَالوث انقيادكَ إلى الشَهوات ، فوربكَ إنَ الحَياة قَصيرة و أقصَر من تناول قُرص من الفَطيرة ..

قُم مَعي إلى المغسَل .. ثَقيلة الخُطى تَجرُ الأسَى ، تَحتمي بالتمايُل عَسَاهَا أن تَصل إلى شَيء يُشبهَا ، فلا شَيء يُشبهُهَا سوى النَدامة على مَا فوّتَ من سَلامة ..

هَيا قُم مَعي و اغسل ذَنبكَ و كَفر عن كَسركَ ، فَالذنبُ كَسر ، و تَحرر من الشَهوات فالوَاقفونَ بين يَد الدَيان قد تَحرروا من كُل مَا يشغل قُلوبهم من مَلذات ..

تَصالح مع الذَاكرة ، تَصالح مع من بَشَر بكَ ، تَصَالح مع أبيكَ ، تَصَالح مع أَهل بَيتك ، ألستَ أنتَ رَجُل الدَار..

تَسألُ المسكينة التي حَمَلت بكَ تسعة أَشهُر :

أينَ هُوَ جَنيني ، ابني الذي أتَاني بَعد أن تَفانت الأَكُفُ في محراب الله ، الصَبي الذي كَان يَملأُ البَيتَ نُوراً و سُروراً ، كدتُ أن أقولَ لهَا :

ابنك مَات .. أفناهُ السكر و السَهر يا أُمَاه ..

و لكن رب العزة أَكرمُ من قال :

قُل يا عبادي الذينَ أسرفوا على أنفُسهم لا تَقنطوا من رَحمة الله إنَ اللهَ يَغفر الذُنوبَ جَميعاً إنهُ هُوَ الغَفور الرَحيم ..

ليتَكَ تستَيقظ من سَكركَ يا صَالح لتَسمع ما أَوحى اللهُ لنَبيه المُصطفى صَلى الله عَليه و سَلم من قُرآن يُتلى آنَاء الليل و أَطراف النهَار ، و الكَريمُ يُحبُ عَودة العَائدين :

و اللهُ يُريدُ أن يَتوبَ عَليكُم و يُريد الذينَ يَتبعون الشهَوات أن تَميلوا مَيلاً عَظيماً ، يُريد اللهُ أن يُخففَ عَنكُم و خُلقَ الإنسَانُ ضَعيفاً ..

صَالح ..

ابنُ الأربعة عَشرِ رَبيعاً ..

عندما اقتَحمت مَواقع التَواصل الاجتماعي العَالم العَربي ، و غَزت الانفتاحَات الفَكرية و الالكترونية عُقول الشَباب، جَمعَ من المَال الحَلال الذي عملَ به في مَتجر وَالده مَبلغاً يؤهلهُ لشراء كمبيوتر مَحمول ليكتشفَ هَذا الكَوكب خَلفَ مقود الشَاشة الزَمنية عن قُرب ، و لكن هَذه الآلة السحرية تَجعلُكَ تَسير عَبر الزَمن قَاطعاً المَسَافَات الشَاسعة بقَبضة الكيبورد، و سَحب نَظرهِ إلى أي مَكان في هَذا العَالم في أوقات فراغه ، كَانَ يختلي بجسده النَحيل في لحَاف الظَلام الدَامس يعَبرُ كُل مَا لا تُلامسهُ الحواس ، يتجَسسُ على المَواقع صَفحة تلوى الأُخرى ..

فقه اللاب تُوب ..

كتَابٌ جَهِلهُ العلماء لأنهُم مشغولونَ بالتَاريخ و حُب المَاضي ، فإن أَراد أن يتمعن أَكثر دَخل عالِمُنا إلى كتَاب الحَيض و النفاس ، و لكَأنَ البَشَر قد تَوقف عندهُم الزَمَانُ تَحتَ فرج المَرأة ، ذَاكَ الوَاقع المُترس بالتَحضُر بكُل أُبهته ، المُتَأنق بالخَوف و الرُعب ، وَاقعٌ أوقع الجهال في فخَاخ الأَحلام و

قَيدهُم إلى الاختلاء بعَالمهم الافتراضي لأنهُم لم يَجدوا مَوطأ قَدم لهُم في عالم الحَواس المَلموسَة ، فتجرد الشَبابُ عن هَويتهم و مُستقبلهم و وَضَعوا جُلَ طموحهم على شَاشَة لا تُسمنُ و لا تَغني من جُوع ، يتهَافتونَ على الازرار الالكترونية يُقلبونَ الواجهَات حَيثُ سَاقهُم الهَوى ..

أحلام مُغبرَّةٌ بالهَوس ، تُمغنطهُم الصُور المُكهربَة ، و تَلسَعُ قُلوبهُم المُتجمدة تَحتَ بُرودَة السَاعَات المُتلفة على مَشَارف جهَاز هُوَ أغلى من حَياتهم ، تُفتحُ مَحال الكمبيوترات في الأحَياء القديمة و يرتادُهَا أهل الليل الذين جَعلوا الليل معاشاً و النهَار سُباتاً ، مُسَيّجة هيَ المَحالُّ بالألواح الزُجَاجية، كَأنَ المكَانَ بالونٌ مُنتَفخٌ بثاني أُكسيد الكَربون ، أَعقاب السَجَائر و المَشروبات الروحية و مُستَقبلٌ ضَائع يجلسُ بجَانب كُل شَاب و كُمبيوتر ..

نَسي هَؤلاء القَوم بأنَ هَذه المَادة المُتحضرة بصندوق مُحكم و مُعقد، والذي يَنقلهُم من عَالم إلى عالم بكبسة زر بأنهَا أداة كَسكين ، يُمكنكَ أن تَستفيد منها و يَمكنُكَ أن تُعلنَ عن نَفسكَ بالانتحَار شَنقاً بكَابل يَربُطهُ بالأنترنت أو كَابل لا سلكي يعجنُ و يخبزُ ويَسحقُ بلا أَية شَفقة ، إنهُ فقه الاولويات

الذي تَجاهَلهُ أهل العَالم و الفَضل و الفُرقة ، هُنَاكَ حَيثُ القباب التي تَحمي رؤوس العُلمَاء تشرحُ مُؤلفاتٍ عدة ، قد حَان الوقتُ لتجديد الخطاب الديني المبني على الحُب و المسَامحة و السَلام، فقه الوَاقع أهم من أي فقه مَضَى، أليس اللهُ من قَال :

تلكَ أُمةٌ قد خَلت لهَا مَا كَسَبت و لَكُم مَا كَسبتُم

أتعبنا الاقصَاء و لُغة الأنَا و الأنتُم !!

من نَحنُ ! ، و من أَنتُم !؟ ..

دَلالاتٌ و سهامٌ قاتلة أدمتنا و فَرقتنا و عجنتنا في قُدورِ الكُره والحقد وجَعلتنا شُعوباً وقَبائل لنتناحَر و نَتقاتل ولكي يُكفِّر بعَضُنا بعَضاً و نُخرج من الجنة من شئنا و نُدخلُ بهَا من مَصلحتنا تَسيرُ بيده ، تنَاسوا قَولهُ تَعالى : وجَعلناكم شُعوباً و قَبائل لتَعارفوا إنَ أكرمكُم عند اللهُ أتقاكم ..

تَباعدت المَسَافات و الشرخاتُ والحُبُ أَضحى صَريعاً مُلقاً في العناية المُركزة يهذي من فُرقتنا و يَفترشُ بُغضنا، وكُلما سَمحت به الفُرصَة أن يستَيقظ من تَخبُطه يقول :

هَل سَادَ الودُ بَينكم !؟

لا أيهُا الحُب نَحنُ لا نَعرفُكَ إلا في كُتب التُراث الأَدبي ، نم جَيداً و لا تُسمعنا مَرضَكَ لأنَ دمَاءنَا أضحت عُرضَة لكُل مَا هُوَ مَاض ..

هُنَاك أشياءٌ كَثيرة و وَفيرة نَستَطيع أن نتَعايش معها ، و لكنّا بحاجةٍ إلى إنصاف دَقيق ، كَالأُم التي تَصنعُ لنَا الكَعكة و نَحنُ مَشغولينَ خَلفَ هواتفنا النقالة ، و بائع الحَلويات و الأيس كَريم الذي كَان يَنتَظرُنَا على باب كُل حَي ، و مُواصَلات التَنقُل التي تنقلُ أثقالنَا من وَهم إلى وَهم ، و نصَائحُ الأب التي لن تَنتهي ، و أَحاديث الجَدات المُرعبة التي تُحذرُ من العَفس و الرَفس و الشَطب و الحَوادث المُسَطرة من قَصص المَاضي .. نَحنُ بحَاجة إلى أشياء كثيرة اشتاقت لنا و لصَخبنَا و أَحاديثنَا و سَمرنَا و هَمسنَا ، فَرُغت المَقاهي من الرُواد و المَكاتب أضَحت كَقرية هَجرهَا أَهلوهَا و مَاتَ الكبارُ حَسرة من الفَراغ و عدم وُجود الأَحفاد حَولهُم ..

التَذُمرُ جَلبَ للآباء جَلطَات قَلبية و أَمراض عَصَبية و تلفاز مُعطل و بيت مشيد ، و الأريكة خَالية من ظلنَا و الصَالة مُفرغة من سهَراتنَا و صُورنا مُعلقة على الجُدران اتخذهَا

أهل هَذا المكَان ليعوضوا وُجودنَا ، و عَجوز هَجرهَا أولادهَا إلى الغَرب و صَوتُ مذياع ينقُل لهَا صَوتَ فَيروز و هي تُغني :

مَا في حَدا لا تَندهي مَا في حَدا ..

كَم من قَميص صُوف نَسجت تلكَ الأنثى ! ، كم من كعكة صَنعت تلكَ الكَهول ! ، كَم من مَائدة أعدت تلكَ العَقور ! ، كم من نافذة فتحت تلكَ الحَنون ! ، كم من باب أوصَدت تلكَ الرؤوف ! ، و كم من هَاتف رفعت تنتَظرُكَ :

ـ ألو !

ـ مين مَعي ! ..

ـ أنَا أُمكَ !! ..

صَوتٌ أتى من الريف ، من رَائحة الخُبز و القَهوة ، و الريح التي تَهوى ، أَحاديثٌ من المَاضي تَقعُ معها إلى عَالم كُنتَ تَتَأففُ منهُ ، من حَياةٍ جُلُ صُورك ألقيتَ بهَا في عُلبة منفاكَ ، من غَفوة أطباق الدَجاج المحَشي و المُلوخية و البامية باللحم و الأَرُز بالسَمن العَربي ، من فُسحة البيت العَتيق و شَجرة الليمون المُتدلية كَالنُور العَميق ، من كُرسي

وَالدكَ الهَزاز والصُحف التي كَانَ يُقلبهُا لَيلاً نَهَار .. إنهُ صَوت المَاضي يا صَالح ..

تَشتاقُ الأمكنة لأَهلهَا ..

و حَتى الحجَارة تئنُ و تَبكي على من هَجَرهَا ..

فكَيفَ بالصَادق المَصدُوق ! ..

عن أَبي هُريرة رَضي الله تَعالى عنه قال ، قال رَسول الله صَلى اللهُ عَليه و سَلم :

اسَتأذَنتُ ربي أن أستغفر لأُمي فلم يأذن لي ، و استأذنتهُ أن أَزورَ قَبرهَا فَأذنَ لي ..

هَيا يا صَالح ..

قُم و ارفع هَاتفكَ إلى أُمكَ !! ..

و ربي !؟ ..

ربكَ أكرم مما تَظُن حَيثُ قَال : هُوَ الذي يَقبلُ التَوبة عن عباده و يَعفو عن السَيئات و يَعلم مَا تَفعلون ..

هَيا يا صَالح ، قُم إلى مِغسَلتك ، أعِنّي عَليكَ يا فَتى ، يَترنحُ كَأنهُ سُنبلة تتقاذفها الرياح ، يتَمايلُ و يتهادى و يقعُ ويَحَاولُ أن يَقوم ، و لكنهُ سَقطَ في الذاكرة ..

تَباً ، ألا يُوجد دَواء للنسيان ..

و مَا كَانَ رَبكَ نَسياً يا صَالح ، يُصحو من جَلستهِ ثم يغفو كأنَ هُناكَ أمرٌ طَارئٌ ينتظرهُ ، شَيء يَسحبهُ إلى أعماق

الظَلام بكُل مُرونة ، صَوتٌ أحنُ من كُل الأَصوات التي التَقى بهَا يُنَاديه من بعيد :

هَيا تَعال .. الحَقني على مَهل .. استعجل ..

من أنتَ ! ..

أنَا صَالح الكحيل ..

من بَعد أن أَجبتُ على سُؤال لا أَعرفُ من سَألني إياهُ، نَظَرتُ خَلفي فَإذا غُرفة عَتيقة مُظلمة، وتَحتَ قَدَميَّ فَتحة نُور ، أُحاولُ أن أُمعنُ النَظَر خَلفي و أَمَامي كَأَنَني أُفتشُ عن صَاحب الصَوت ، كُنتُ مُكبلاً بالسَلاسل من قدمي و مَعاصم يَدي ، دُهشتُ عندما بدأتُ أبحثُ عن ذَاتي كَأَنَني مُجردٌ من كُل شَيء ، سَقطَ قلبي مُرتطماً بالخَوف، ظَلامٌ دَامسٌ و بَصيص نور يَسري تَحتَ قَدمي ، شَعرتُ بأنَ هُناكَ شَيئاً يَسيرُ على جَسدي ، رَائحة دمَاء و عُطونة غَاز و مَاءُ نفايات ، بدأتُ أشعُر بالاختناق، كُنتُ أتمنى أَن أَجدَ صَاحبَ الصَوت ، سَألني من أنتَ !؟ ..

أَجبتهُ و لم أَرهُ :

أنَا صَالح الكَحيل .. و لكن من أنتَ ..

اختفى الصَوت و جُنَّ جُنوني :

هيا من أنتَ ! ، أَجبني أرجوك ؟ ..

كُنتُ ألتَفتُ حَولي كَأنَني وَقعتُ في وَرطَة و لن أخرُجَ منهَا ، كُنتُ أعتقدُ بأنَ خَلفي دَعوة أبوين يلهَجونَ لي بالدُعاء و الحفظ و العناية ليل نَهَار، كُنتُ أَظنُ بأنَني مُحصنٌ بالمَاضي من عمل خَيرٍ قَد وَصل المُنتهَى ، لكن على مَا يَبدو بأَنَي وَقعتُ في مَغبة أَعمالي ..

ـ أَرجوكَ أينَ أنتَ !! ..

كُنتُ أبكي بحَرقة شَديدة أشعُر برجَفة شَديدة تَسيلُ في عُروقي كَمَا تَسيل الدمَاء على جَسدي ، أتساءل لمَاذا أنَا هُنَا و كَيف أَتيتُ إلى هُنَا !؟ ..

شَعرتُ بكفٍ رَائحتهُ قَذرة قَد مَست كَتفي من الخَلف ، خَرت رُوحي رُعباً كَأنما المَوت ، كَفٌ خَشنة مُتشققة و مُتفحمة مَجبولة برائحة القَذارة ، هَل هَذا المَكان عبارة عن غُرفة ، و إذا كَانَ غُرفة لمَا هُوَ من غَير أبوابٍ و نَوافذ !؟ ..

لم تُؤلمني السَلاسل و لا الجراح و لا الخُدوش، و لأَن الرُعبَ لم يُبقي لي شَيئاً، فبتُّ أشعُر بأنَ كُلَ مَا خُلقَ من فَزع على هَذه الدُنَيا قد مَرغَ فَرائصي بالقَلق و التَوتَر ..

هَل تَقصُد أنَا !! ..

التَفتُ إليه بكُل رَوية ، شَاهدتُ مَا لا تَراهُ عَينٌ و لا تَسمعهُ أُذن و لا يَخطُر على بال أو قلب بَشَر ، رَجُل مُرعب مُلطخٌ بالسَواد ، و من فَزع المشهد وَقعتُ مُغماً عَلي :

ـ هيا يا صَالح قُم إلى المُغتسل ..

فَتحتُ عَيناي فَإذا النُورُ حَولي ، مُستَلقي في الكريدور الذي يَفصُلني بينَ الغُرفة التي أعيشُ بهَا و المَطبخ ، حَاولتُ النُهوض و لكن كَميات الكُحول التي شَربتُهَا تُعَادلُ ما يَشربهُ أي إنسَان كُلَ يَوم من مَاء ، أشعُرُ بالغَثيان و أنَني سَوف أستَفرغ كُل شَيء في مَعدتي ، كَانَ المكانُ يَدورُ بي، ابتسمتُ لأَن ذلكَ المَكان بمن فيه كان مُجرد وَهم أو لعَلهُ حُلم ، ابتسَمتُ للقدر، و لكنَ هناك شَئٌ كان يسيلُ على خَدي، مَسستُ خَدي بكفي فَإذا هي دُموعي التي فقدتُهَا بَعد كُل صَلاة فَجر و كُل دُعاء وتر ، من أنَا يا تُرى !؟ ، و مَاذا أفعلُ هُنَا !؟ ..

ـ أستَغفرُ الله العَظيم ..

قُمتُ إلى المُغتسَل و تَقيأتُ مَا كَانَ في بَطني من أَحمال مُسكرة ، كَانت تَخرجُ كُتل الكُحول مع مَا التَهمتهُ من مُكَسرات ، أراهَا تُقذفُ من فمي و يسيلُ لُعَابي خَلفهَا كَأنهَا

سُمٌ قَاتل أريد التَخلُصَ منها ، أُشَاهدُ جُورة الخَلاء كَيفَ يَطوفُ بهَا مَا أَخرجتهُ مَعدَتي ، تَمتدُ و تَتَقلص الكُرات أَمَامي كَأنهَا جُورة وَحل ممتلئة بالذُنوب التي جَنيتُهَا ، كَأول ليلة اختليت بهَا مع اللاب تُوب قَبل ست سَنوات حَيثُ أحكمتُ الغُرفة جَيداً و عَقدتُ الأقفال بالمَفاتيح ، و هَذه أول مَرة أصنعُهَا ، كم كَانت تلكَ المَواقف حَقيرة ، لم أُعطي انتباهي بأنَ أبي سَوفَ يُوقظني على صَلاة الفَجر ، فَرحتُ كَالثَعلب المَاكر أُقلبُ صَفحات المَواقع بحثاً عن الرَذيلة ، كَما أنَ غَيري كَانَ يبحث في هَذه المَواقع عن الفضيلة ..

عن أَنس بن مَالك رَضي اللهُ تَعالى عنهُ قال:
كَانَ غُلام يَهودي يَخدمُ رسولَ الله صَلى اللهُ عَليه وسَلم فمَرضَ ، فأتَاهُ النبي صَلى اللهُ عَليه و سَلم يَعودهُ ، فقعدَ عندَ رَأسه ، فقالَ لهُ : أَسلم . فَنظرَ إلى أبيه و هُوَ عندهُ ، فقالَ لهُ: أَطع أبا القاسم صَلى اللهُ عَليه و سَلم ، فَأسلم ، فَخرجَ النبي صَلى اللهُ عَليه وسَلم وهُوَ يَقول :
الحَمدُ لله الذي أَنقذهُ من النَار ..

رواهُ البُخَاري

إنهُ رَسولَ الله يا صَالح ، مُنقذ البَشَرية من التَخَبُط في دُنيا الأَهواء إلى رَاحة أبدية ، الصَادق الهَادي الأمين، الذي أَنقذَ يَهودياً منَ النَار فَكَيفَ بكَ يا صَالح ! ، ألم تُجَالس أَهلَ العلم و الفَضل في جَامع خَالد ابن الوَليد ، ألم تَستَمع إلى شَمَائله و هُوَ يُلقيهَا على من كَانَ يَرتَاد الجَامع ، شَمائل الحَبيب المُصطفى الذي قَال فيه الصَحابي الجَليل حَسَان بن ثَابت رضي اللهُ تَعالى عنهُ :
بطيبة رَسمٌ للرسَول و مَعهدٌ ..

مُنيرٌ و قد تَعفو الرُسومُ و تَمهدُ ..
و لا تَنمحي الآياتُ من دَار حُرمة ..
بهَا منبرُ الهَادي الذي كَانَ يَصعدُ ..
و أَوضَحُ آيات و باقي مَعالم ..
و رُبعٌ لهُ فيه مُصَلىً و مَسجدُ ..

ألم يَحملكَ أبوكَ في سنِّكَ الثَالث على كَتفه ليطوف بكَ في قُبتهُ الخَضراء حتى وَصَل إلى شُباك المُصطفى صَلى اللهُ عَليه و سَلم صَاحَ وَقتهَا :

ـ يا رَسولَ الله هَذا صَالحٌ الذي بَشرتني به ، أَتيتُكَ حَافياً عَطشاً شَغفاً لأَرتمي على شُباككَ فقيراً ذَليلاً أرجو حُبكَ و نَوراً من لَدُنكَ يا حَبيبي يا رَسولَ الله ..

هُوَ اللهُ الذي أَمرهُ أن لا يَخفضَ رَأسهُ في حَديث الشَفاعة حَيثُ قال :

فَيأتوني فأستَأذنُ على رَبي في دَاره فَيؤذن لي عَليه ، فإذا رَأيتهُ وَقعتُ سَاجداً ، فَيدعني مَا شَاء الله أن يَدعني ، فَيقول: يا مُحمد ارفع رأسك ، و قُل تُسمع ، و اشفع تُشفع ، و سَل تُعطى ، قال فأرفع رَأسي فأُثني على رَبي بثناء و حمدٍ يُعلمنيهُ ، فَيحد لي حَداً ، فأَخرُج ثم أُدخلهُم الجَنة ..

قال قتادة و سَمعتُهُ أَيضاً يَقول :

فأَخرُج ثم أُخرجُهم من النَار و أُدخلهُم الجَنة ..

ثُمَ أَعود فأستأذن على رَبي في دَاره ، فَيؤذنُ لي عَليه ، فَإذا رَأيتهُ وَقعتُ سَاجداً ، فَيدعني ما شَاء الله أن يَدعني ، ثُم يَقول :

ارفع رأسك يا مُحمد ، و قُل يُسمع ، و اشفع تُشفع ، و سل تُعط .

قال :

فأرفعُ رَأسي فأُثني على رَبي بثناء و حمدٍ يعلمنيهُ ، قَال:

ثُم أشفع فيحُد لي حداً ، فَأخرج ثم أُدخلهُم الجَنة ..

قَال قَتادة : و سمعتهُ يَقول :

فأخرجهُم من النَار و أُدخلهُم الجَنة ، ثُمَ أَعود الثَالثة ، فأستأذنُ على رَبي في دَاره فَيؤذن لي عَليه ، فإذا رَأيتهُ وقَعتُ لهُ سَاجداً ، فَيدعني ما شَاء اللهُ أن يَدعني ، ثُمَ يَقول :

ارفع يا مُحمد ، و قُل يُسمع ، و اشفع يُشفع ، و سَل تُعطه ، قَال :

فَأرفعُ رأسي ، فأُثني على ربي بثناء و حمدٍ يُعلمنيهُ ، قَال :

ثُمَ أَشفع فَيحُدَ لي حَداً ، فَأخرج ثم أُدخلهُم الجَنة ، قَال قتَادة : و قد سَمعتهُ يَقول :

فَأُخرجهم من النَار و أُدخلهُم الجَنة ، حَتى لا يَبقى في النَار إلا من حَبسهُ القُرآن .. أي وجبَ عَليه الخُلود ، قَال: ثُمَ تَلا هَذه الآية :

عَسَى أن يَبعثكَ رَبُكَ مَقاماً مَحموداً ..

بينَ رَحيل الفَجر و إقبال خيوط الشَمس كَانَ هُنَالك قَلب قَد تَرهلَ بالذُنوب و على وشك أن يَتوب و يَعود إلى عَلّامِ الغَيوب ، يُريد أن يَخفضَ رَأسهُ و يُعلنَ عن ما أحدثَهُ من مَصَائب بحق نفسه التي أردَاهَا المَهالك ، إنهُ صَالحُ الذي لم يَستطع شَيطَانهُ إفسَادهُ ، هَا هيَ الروح تُخمر بينَ النُور و الظَلام و تَستَعيد رَونقهَا ، إنهَا بحَاجة إلى نَقاهة و تَرويض كَي تَعودَ إلى الله ..

إنهُ الله الرَحمن الرَحيم الذي قَال :

يا ابنَ آدم إنكَ مَا دَعوتني و رَجوتني غَفرتُ لكَ على ما كَانَ منكَ و لا أُبالي ..

يا ابنَ آدم لو بَلغت ذُنوبكَ عنان السَمَاء ، ثُمَ اسَتغفرتني ، غَفرتُ لكَ و لا أُبالي ..

يا ابنَ آدم إنكَ لو أتَيتني بقُرابِ الأَرض خَطايا ، ثُمَ لقَيتني لا تُشرك بي شَيئاً ، لأَتَيتُكَ بقرُابهَا مَغفرة ..

هَا هيَ رِحَالُ رُوحكَ تَجُدُ السَير مُسرعةً إلى الذي لا تَضَيعُ عندهُ الوَدائع ، و ذَاكَ الصَادقُ المَصدوق الذي بَعثَهُ اللهُ رَحمةً للعَالمين سَاقَ لكَ بُشرى الخَير كَي يَنتَظركَ في قَوافل العَائدين ، فَلا أُريدُ منكَ ظَواهر تَتَزين بهَا فَاللهُ يَتولى السَرائر و يُنَادي بأهل الأرض الذينَ لوثوا بالذُنوب فيقول :

هَل من دَاع فأستجيب لهُ !؟ ، هَل من سائل فَأُعطيهُ ، هَل من مُستَغفرٍ فَأغفر لهُ !؟ ..

هَا قد حَانَ أن تَغسلَ مَا في قلبكَ و تَخلع مَا جَنتهُ مَلذاتكَ و تَقول :

أنَا يا الله ..

أمسك بكَف الحَبيب المُصطفى ، و سر معهُ إلى النُور حَيث لا هَمٌ و لا غُموم ..

عن أبي هُريرة رضي اللهُ تعالى عنهُ قال :

قَال رَسوُل الله صَلى اللهُ عَليه وعلى آله وصحبه وسَلم :

من كَانت عندهُ مَظلمةٌ لأَخيه من عَرض ومَال فَليتحللهُ من اليَوم قَبل أَن يَأتي يوم لا يَكونُ هُنَاك درهمٌ و لا دينار ، إن كَانَ لهُ عمل صَالح أُخذ من حَسنَاته بقدر مَظلمته، وإن لم تَكُن لهُ حَسنَاتٌ أُخذ من سيئات أَخيه فطُرحت عَليه .

هَيا يا صَالح ..

قُم و اغسل ذَنبكَ و أبرئ مَا بَينكَ و بينَ الله ، أَمسك بحبل من لا تَضيع عندهُ الودَائعُ ودَع عنكَ الرُقود فأنتَ اليَوم مَوجود و غَداً مَفقود ..

يَمسحُ العَرق المُتصبب من جَبينه يَنهَض إلى حَوض المَاء يمَشي كَما تَزحفُ السُلحُفاة يَخافُ من أن يكونَ هَذا اليَوم آخر يوم في حَياته ، و مع أنَ الخمرة أسكرتهُ تَماماً، فإن قَلبهُ لا يزَال يَقظاً ، سَتَائرٌ من الخَيال تَتَراقَصُ أَمَامَ عَينَيه يرى بهَا أُختهُ الكُبرى صَفية، تَرتدي ثَوبَ صَلاتهَا الأَبيض، عَينان واسَعتان عَسَليتَان و فمٌ صَغير مثل حبَة اللؤلؤ و خَد مُحمرٌ كَأنها تشبهُ جَدتها أُم وَالده ، فَلقد كَانت الجَدة جَميلة جداً و من أَهل الصَلاح حَيثُ تَوفَاهَا اللهُ في جامع خَالد بن

الوَليد في ليلة القدر من السَابع و العشرين في رمَضَان عندَ صَلاة التَراويح..

ضَجَ النَاسُ بوَفاة السَيدة الفَاضلة خَديجة أُم جَمال، المَرأة المُؤمنة الفَاضلة ، حَيثُ ووريت في مقبرة الصَالحين خَلفَ مَسجد سيدي خَالد بن الوَليد ، كَانَ أَبوك يَقولُ دَائماً عن أُختكَ صَفية :

تُشبهين جَدتك بكُل شَيء و حَتى بصَلاحهَا ..

كَانت أُنثَى كَشقائق الجوري تَخجَلُ من أَية كَلمة تُوجهُ لهَا مدحاً كانت أو ذَماً ، و هَا هيَ الآن تَأتيكَ وأنتَ في أراذل أحوالكَ بكُل طُهرهاَ و أُبهتها تَسيرُ على مَهل مَشغولة بتَرتيب الطَريق، تصطدم عَينَاكَ بها تَخشى الاقترابَ منهَا تَتَهربُ خَلفَ سَكركَ مُسرعاً بكُل خَجلكَ ، و لكنهَا لا تَراكَ و لا تَلمحُكَ ، تَخشَى النَاس أَكثر من خَشيتكَ من الله، يَقعُ هَذا الشَيء في نَفسكَ و تُخفيه خَلفَ حَيائكَ ، هل تَعلم أنَ الله يَستحي من عَبده إذا كَشَفَ سرهُ أمَامَ بَقية خَلقه !؟ ..

سَوفَ أَتركُ لكَ مَاهية التَفكير في ذَلكَ و لكن من بعد أن تَرى مَاذا تَفعلُ أُختُكَ ، كَانت صَفية تُفتشُ عن شَيء فَقدتهُ في خزَانتهَا و أصوات أطفالهَا يَبكونَ حَولهَا، كَان الصَوتُ

مُدوياً جداً، يتَسارعُ بقوة لا توصف، تَسدُ أُذنُكَ كَي لا يَنفجرُ دماغُكَ ، تتذكر تلكَ اللحَظة فَجأة، تَتَذكَرُ ذَلكَ اليَوم فتتسمّرُ تلكَ الغَصة في مَكانهَا لأنَك تَعلم بأنكَ أنتَ صَالح الذي لا يُفسدهُ شَيء ، تَعودُ بكَ الذَاكرة قَبل أن تَهرُب إلى تُركَيا عندما طَلبت منكَ أُختُكَ أن تَأتي لتَناول طَعام الغَداء قَبل سَفركَ ، تَتَوجهُ إلى بيتهَا الذي تَقطنهُ في حَي الوَعر ، تَفرحُ أُختُكَ برؤياكَ تضُمكَ لأنَك قطعة من لحَمها و دَمها ، هي التي كَانت تُحبُكَ حُباً جماً ، هَي التي كَانَ لهَا قسمٌ كَبير في تَربيتكَ عندما وُلدت ، كَانت تَحملكُ طُولَ الوَقت حتى ذَاب دَلالك على حُضنها ، هي أُمكَ الثَانية التي تَخافُ عليكَ أَكثر من خَوف أُمكَ عَليكَ :

ـ يا عُمري أَجيت .. !

يَتهللُ وَجهها كَأنهَا رَأت الأعزَ من نَفسهَا على قَلبهَا ، يلتفُ أولادهَا حَولكَ، تُقبلهُم وتَرفعُهم و تَضُمهُم ، تَفرحُ أُختُكَ بهذا المنظَر، ألستَ أنتَ خَالهُم ! ..

هي التي سَمت ابنهَا الثَاني على اسَمكَ ، صَالح أحب الأسمَاء على قَلبهَا لأنهُ هُوَ قَلبهَا و نَبضُهَا و ما يَجري في

عُروقها ، يَحبو إليه صَالح على بطنه ، هَا هُوَ صالح يُقابلُ صَالح ، و لكنكَ أنتَ لستَ صَالح بعدَ اليَوم يَا صَالح ..

تَتناولُ غداء الوَداع قَبل أن تَهربَ إلى تُركيا ، و تَطلبُ منهَا أن تَدخُل إلى غُرفتهَا كَي تُصَلي العَصر ، تفردُ لكَ سجادة الصَلاة و تُخرجُ أولادهَا كَي تَخشَع في صَلاتكَ، ولكنَ مَبلغ المال الذي كَان مَوضُوعاً بجانب السَرير أفقدَكَ لَذة الصَلاة ، همت بكَ نَفسُكَ بهمةَ السُوء ، قُلتَ في ذَاتكَ بأنَك سَوفَ تُسَافر و رُبما لن تَرى أُختكَ و لا أولادهَا إلى أن يَرثَ اللهُ الأرض و من عَليهَا ، تُنهي صَلاتَك بسُرعة و تَخطُفكَ الركَعات حَتى لم تَعُد تَعرف كم من رَكعة صَليت ، فَأنتَ من يَعرفُكَ القاصي و الدَاني بالصَادق الأمين ..

تَذوبُ الأمانة و الصدق عندما جَعلتَ الشَيطَانُ خلاً له ، كَانت جُل مَشَاعركُ الصَادقة بينكَ و بين الله تقولُ لكَ :

وَيحكَ مَاذَا دَهاكَ !! ..

لا شَيء أَبداً مُجرد زَلة قَدم تَهوي بكَ سَبعينَ خَريفاً نَدماً ، هَل نَقولُ بأنَ النَدم صَنعَ منكَ رجُلاً يخشَى منَ الله و من ثمَ ضَميرهُ !؟ ..

تَسيرُ بكُل روية خَوفاً من أن يَراكَ أحد و تناسَيتَ بأنَ الله لا تَأخُذهُ سنة و لا نَوم ، تَصلُ إلى مَبلغ المَال و تَحملهُ و تَضَعهُ في جَيبكَ ، نَفثت السَماءُ في أُذنَيكَ يَومَها:

أَبعتَ دينكَ بدراهم مَعدودات !

لتَحملهَا من غَير أن تَعلم أُختُكَ ، و لكنَهَا سَوفَ تَعلم عندما عَرفتَ بأنَ هَذا المَبلغ قَد وَضَعتهُ لكَ جَانباً كَي تُسَاعدُكَ على غُربتكَ ، و لكن مَاذَا يُفيد النَدم يا صَالح ..

هَل أدعُوكَ بفاسد ..

لا لن أَفعلها أبداً لأنَ النَدم يتجولُ مَعكَ أينما اتجهت لقول رَسولَ الله صَلى اللهُ عَليه و على آله و صَحبه و سَلم :

النَدم تَوبة .

عن أبي سَعيد الخُدري رَضي اللهُ عنهُ ، أنَ رَسولَ الله صَلى اللهُ عَليه و آله و صحبه و سَلم قَال :

كَانَ فيمن كَانَ قَبلكُم رَجلٌ قَتل تسعة و تسعينَ نَفساً ، فَسَأل عن أَعلم أهل الأرض ، فَدُلَّ على راهبٍ فَأَتَاهُ ، فقال إنهُ قَتل تسعة و تسعينَ نفساً فهل لهُ من تَوبة فقال : لا ، فَقتلهُ فأكملَ به المائة ، ثُمَ سَأل عن أَعلم أهل الأرض ، فَدُلَّ على رَجُل عَالم ، فقال إنهُ قتلَ مائة نَفس فَهل لهُ من تَوبة ؟ ، فقالَ : نَعم فسأل عن من يَحولُ بينهُ و بينَ التَوبة فقال انطلق إلى أَرض كَذا و كَذا فإنَ بهَا أُنَاس يَعبدونَ الله فاعبد الله معهُم و لا تَرجع إلى أرضَكَ فإنهَا أرضُ سوء .

فانطلقَ حتى إذا انَتصَفَ الطَريق، فأتاهُ الموت فاختصمت فيه مَلائكة الرَحمة و مَلائكة العَذاب، إنهُ لم يَفعل خَيراً قط . فَأتاهُ مَلك في صُورة آدَمي فوجدوهُ أدنى إلى الأرض التي أرادَ فقَبضَتهُ مَلائكَة الرَحمة ..

استَيقظ يا صَالح !! ..

مَا الذي جَرى لكَ ، هَيا قُم من حَوض السباحة و افتح عَليكَ صَنبور المَاء كَي تَصحو قَبل أن تَندلع شَمسَ رمَضَان ، لا

الذَاكرة تَجلدُك بالمَشَاهد التي سَلبتَ بها مال أُختُكَ، يومهَا اعتذَرت لكَ يا صَالح عندما قالت لكَ :

ـ و الله يا أَخي خبأتُ لكَ مبلغاً من المَال في غُرفتي كُنتُ أُريد أن أُعطيه لكَ و لكن أُقسمُ لكَ بأنَني لا اَعرفُ أينَ وضَعتهُ ..

انكَسرتَ وَقتهَا خَجلاً من فعلتَك و تَمنَيتَ أن تبتلعك الأرضُ بفعلتكَ التي فعلت ، راحت رُوحكَ التي سَلبت المَالَ تُجلدُ بكُل قُوة ، كَانت رُوحاً طَاهرة قَابلة لأن تَعود ، و لكن سَقطَت و تَحطمَ كُل طُهركَ أمَامَ ما كَانت تَنوي فعلهُ أُختُكَ صَفية ، هَا هي صَفية اليوم تَقفُ في كُل وَجع أمَامَ مَشَهد خَيالكَ تُقَاضيكَ وتُريد الصدق ، الصدق فقط كَي تُريح ضَميرهَا الذي جَمعَ المَالَ قرشاً فَوقَ قرش ، كَانت تَنوي أُن تُعطيكَ مَبلغاً ضَخماً في يَوم عُرسكَ ، و لكَنهَا خَشيت أن لا تَراكَ مَرة أُخرى و تُغادر و لا تَعود..

و لكنكَ يَا صَالح ذَهبتَ و لم تَعد ، عُد إلى طُهر قَلبكَ و عفة رُوحكَ و نقاء ذَاكَ الصَبي الذي لم يَلمس الحَرام يَوماً مَا ، كدتَ أن تُرممَ قَلبهَا المكسُور الذي سَرقتهُ ووَضَعتهُ في

جَيبكَ و هَربتَ بهِ إلى حَياة سَوداء أنتَ اخترتَهَا و أَحببتَ أزقتهَا المُعتمة ، سُؤالٌ يُراودُ سُطوري! ..

أبوكَ الطَاهر المُطَهر المَصون ، و أُمُكَ الشَريفة العَفيفة صَاحبة التَربية الصَالحة ، و أَخواتُكَ من أحاسن النَاس أخَلاقاً و طُهراً ، و لكن أنتَ اختَفى نُوركَ عندما جَعلتَ ضَميرك عَدواً لكَ و الشَيطانُ جَاراً لشَهواتكَ ، مَا هَكذا تُوردُ الإبلُ يَا صَالح أم هيَ المَصَالح !! ..

قُلتَ لهَا يَومهَا :

ـ لا دَاعي للمَال أُختاه ، كَأنهُ وصَلَ و كَأَنني أخذتُهُ و كَأنني اسَتفدتُ منهُ ، و كَأنَك أَخذت أجر مَا صَنعت مَعي..

كَأنَ ..

كَم هي مُؤلمة و مُفرحة حَدَ المَوت ، كَأنَكَ و كَأنهَا ، و هَكذا تُضمخُ بالمَلامة ، تَلوم ذَاتَكَ التي لم تَمسَ مَالاً حَراماً قَط ، و منْ مَن ! ..

من صَفية أُختكَ و مُربيتكَ و التي أفنت فُتوتهَا في إسعَادكَ ، تَأتيكَ كَلمة : كأنَكَ تَصُبُ نَارَ الله المُوقدة في تَجويف ضَميركَ المُهترئ ، يا ليتَكَ لم تَفعلهَا ، يا لَيت يَدكَ شُلت قبل أن تَمسس مَا حَرمهُ اللهُ عَليكَ و على يَدَيكَ ، يا ليتَ الأرضَ

هُزت من تَحت قَدميكَ و لم تَقرب ذَاكَ المَال ، هَا هُوَ يَعودُ إليكَ ، كَانَ مقسوماً لكَ ، مَلفوفاً تَحت اسمكَ ، و لكنهُ مَسروق بعدَ صَلاتكَ ، و ما تَنفعُ صَلاتكَ إن لم تَنهَكَ عن الفَحشَاء و المُنكر ، ألا تَعلم بأنَ ذكرَ اللهُ أكبر ..

يأتيكَ صَوتُ المُنَادي من بَعيد يُذكرُكَ بمَا جَنَيت في أُبهَة طُهركَ كَرمَاح صَواعق تَنهمرُ من السَمَاء تَتَراشَقُ على قَلبكَ فيقعُ القَلبُ جَريحاً مُدمى عَليه ، عندَ كُل نداء :

اللهُ أكَبر ..

تَتكسَرُ مَلامح أُختكَ أمَامَ خَجلكَ المُتآكل بالأحراج ، تَقعُ عَينَاهَا على صيغتهَا التي زُفت بهَا ، لا تُريدُكَ أن تَرحل قَبلَ أن تَطمئنُ عَليكَ ، تُريدُكَ أن تَبقى ابنَ أبا صَالح الكَحيل الذي لا يَمُدَ يَدهُ لأحد ، ابنَ ذَاكَ الرَجُل الذي أَطعمَ الجياع أكثَر من خَمسين عَاماً ، رَاحت تَخلعُ صيغتهَا من أسَاور و حَلق و أطواق ، و تَحملُهَا بصندوق خَشَبي و تَضعهُ بينَ يَدَيكَ ، و تَقول :

هَذا كُل مَا أملك ، و لو استَطعتُ أن أُعطيكَ قَلبي لَفعلت يا صَالح ..

تشهقُ من صَنيعها إلى هَذه اللحظة، تَشعُر بدُمّلةٍ تتوسَطُ الحلقوم تَأكلُ معكَ ، و كلما ابتلعت ريقكَ تتشَردق بذاَك المَوقُف الذي أدماكَ و أبكَاكَ إلى هَذه اللحظة ، تُريد أن تَنسَى أو تَتَناسَى و لكن طَيفَ صَفية التي قَطعتهَا منذُ ثَلاثة أعوام تُلاحقُكَ أينمَا اتجهت، تَأتيكَ في كُل رَشفة سَكر تصَرخُ في حُفرة أُذُنَيكَ :

أُريدُ حَقي ، يا حَرامي لمَاذا فعَلتَ ذَلكَ يا صالح !

لن تُشفى من صَوتهَا أبداً حتى تَعترفَ لهَا و تَقول لهَا مَا جَرى ، بدَمعتهَا الحَنونة و انكسَارهَا المُهيب و طُهرهَا المُرتَب و جَمَال نُورهَا البهيج ، تَأتيكَ في أواخر سَكرتكَ تمشي في روَاق البَيت تنتعلُ حذائهَا المُدبدب و يُسمعُ لمَشيهَا صَوتٌ كَأنهُ زلزال يَقتربُ إليكَ و يَتشَقق كلمُا تقدم، ورُعودٌ تَسوق الرُعب بكُل هَيبة و تَقول : هَيا تَقدم ..

عن الحَارثِ بن سُوَيد قال :

دَخلتُ على عبد الله أعودهُ و هُوَ مَريض ، فَحدثنا بحديثَين ، حَديثاً عن نَفسه و حَديثاً عن رَسول الله صَلى الله عَليه و على آله و صَحبه و سَلم ، قَال :

سَمعتُ رَسول الله صَلى اللهُ عَليه و سَلم يَقول :

للهُ أَشدُ فرحاً بتَوبة عَبده المُؤمنِ من رَجُلٍ في أَرض دوية ومُهلكة مَعهُ رَاحلتهُ عَليها طَعَامهُ وشَرابهُ ، فنامَ فاستَيقظ وقد ذَهبت فطَلبهَا حتى أَدركهُ العَطش ثُمَّ قَال ، أرجعُ إلى مَكَاني الذي كُنتُ فيه فأنَام حَتى أَموت ، فَوضَع رَأسهُ على سَاعده ليموت فاستَيقظ وعندهُ رَاحلتهُ و عليهَا زَادهُ و طَعامهُ و شَرابهُ ، فاللهُ أشَدُ فرحاً بتَوبة العَبد المُؤمنُ من هَذا براحلته و زَاده ..

رَواهُ البُخَاري

هَيا يَا صَالح افتح عَينيكَ ..

تَتَقلبُ في زَوبعة سَكرته المشَاهد التي لا يَرغَبُ أن يعودَ إليهَا ، و لكنها تَعودهُ في ذُروَة سَعادته كَمَا يَظُنُ وهي في أسوأ مَراحل تعَاسته ، تَشدهُ من طَرف قَميصه الذي كَانَ يَرتَديه ، لم يَكن قميصهُ أبداً ، و إنمَا قَميص صَديقه الذي

لجأ إليه قبل أن يُغَادر حُمص ، إنهُ هُوَ ولا أَحدٌ غَيرهُ يأتيكَ كمَوجوع يتألمُ وَجعاً ، كَان في طَريقه إلى الأردن مع أهله و لكنَ الحكاية تتَوقفُ عندكَ أنت ، أُحبُ أن أستمع للقصَة من فَمكَ ، وعلى مَا يَبدو بأنكَ تكره الحكاية هَذه بالضَبط ، لماذا يَا صَالح !! ..

صدَيقُكَ الذي قَاسمَكَ طُفولتَكَ ، والذي كُنتَ تَحسَبهُ و لا تزَالُ من الصَالحين ، كُنتَ تُطلقُ عَليهَ كُلَ صَباح صَوتَكَ من تحت شُبّاكه :

ـ يا بُرهَان ، هَل أنتَ جَاهز ؟ ..

كَانَ دَائماً يَنتـظرُكَ و يتَرقبُ صَوتَكَ ، ليسَ لهُ أَحدٌ غَيركَ لأَنكَ كُنتَ صَديقاً صَالحاً وصَالحاً ، إنهُ بُرهانُ الذي كَانَ يعَمل في مَعامل النسيج كُلَ عُطلة كي يُوفر المال لَيُكملَ الجَامعة و لا يَمد يَدهُ لأمه ، كَانَ حَالُكَ أَفضَل من حَاله بَكثير ، ولكنَهُ رَفيقكَ لأَنَك كُنتَ مَجبولاً بالفطرة و لم يُصَبكَ الغُرور بعَد ..

كَانَ قَد أَعلمَكَ سَابقاً بأنهُ جَمعَ مَبلغاً من المَال كَي يَسُدَ حَاجتهُ في وَقت المُلمَات ، و قدَ ألقى بسره في مَسَامعك و

رَاحَ السرُ يَنمو و يَنمو حَتى استَوى عَلى مَهل ، نَويتَ بالمُضي إلى تُركيا ووَقفَت أَموال غَيركَ نَصبَ عَينَيكَ ..

هَل تُقارنُ نَفسَكَ ببُرهَان ! ..

إنهُ بُرهَان ، معدومُ الحَال عَزيز النَفس الذي لم يَلمس مَالاً حَراماً طيلة حَياته ، الشَابُ المُنطوي بذاته المُنكفئ على دَراسته الذي لا يعَرفُ من الأَزقة إلا بَيته و جَامعته وعمله ، إنهُ كفاح على أرض الكفاح، أُمهُ المُؤمنة الرَاضية المُحتَسبة التي فَقدت زوجها و أُلقيَ عَلى كَاهلهَا أربعةٌ من الذُكور و أربعَةٌ من الإنَاث ، رَفضَ إخوتهُ أن يَخرُج من المَدرسة ورَاحوا يَجمعونَ القرش فَوقَ القرش حَتى سَتروا على أنفُسهم وعلى أُمهم و أخَواتهم المسكينَات ، ألم تَذكر عندمَا كَانت تَقول لكَ أُمُهُ :

ـ و الله يا صَالح لو طَلبتَ إحدى بنَاتي لأَعطيتُ لكَ البنت التي تُريد و لا أُريدُ منكَ لا هَدية و لا جزية و يكفيني مَهرها أَخلاقُكَ ..

كَانت تُفتَحُ لكَ أبوابُهم و قُلوبهُم و أرواحُهم كَأنَها جَنة انفرجت على مصراعيهَا ، أُم هشَام الحَاجة الفَاضلة والمُربية الطيبة لأُم بُرهَان الابن الأصغر ، تَأتيكَ في كُل

لَيلة ، في كُل فَجر ضمير ، عندَ الرَاحة ، عندما تتكئُ على ظَهركَ ، في كُل لُقمة ووَجبة ، في سَيركَ وَحدكَ في خَلوتكَ ، تُنَاديكَ :

ـ هيه يَا صَالح لا تنَسانا !! ..

كَانَ مَعكَ من المَال مَا يَكفي لكي تُسَافر وتَبدأ بعملٍ ما حالماً بحَياة سَعيدة ، لم أَقصد خَالتكَ سَعيدة أُم فَاضل ، و إنما الحَياة التي كُنتَ تُريد أن تُؤسسهاَ من عَرق جَبينكَ ، خَابَ جَبينُكَ يومها عندما لم يَشعُر بَسَيلان العَرق وتَعرقَ الضَميرُ يَتَخبطُ بمَا فيه من ذُنوب ومَعاصي وأَخطاء تُغتَفر ولكنها بحَاجةٍ إلى عَودة ، وإعادة حَقٍ لأَهله .. من هُم أَهله يا فتَى ! كَم من مَرة وَقفتَ أَمامَ المرآة تَبحثُ عَن ذَاتكَ ، كم من مَرة أَتَاكَ بُرهَانُ يُريدُ البُرهَان ، ولكنَ خانتكَ كُل بَراهينكَ البَاطلة ، كم من صَوتٍ جَاءَ من أَرض الوَليد يَدوي بأعلى وَجعه و ينُادي :

ـ يا صَالح .. مَاذَا فَعَلت إلى الآن ! ..

صَالحُ مُكَبلٌ بكُل مَا تَتَوقعهُ يَا بُرهَان ، إنَ صَالح الذي وَدعتهُ ذَاتَ مَسَاء ليس هُوَ الآن ، لَقد رَحَل صَالح إلى عَالم السَواد والظُلمَات ، هَل تَذكُر يا صَالح عندما جئتَ بُرهَان :

ـ أَخي بُرهَان أُريد أن أَطلُب منكَ طَلباً صَغيراً ..

كانت هَذه أَول مَرةٍ يطلبَ فيها صَالح شَيئاً من بُرهَان ، يَحكُ رأَسهُ مُستَغرباً مُندهشاً مما يَسمعُ من فَتى وَالدهُ أغرقَ بُطونَ الجياع خُبزاً و لحَماً :

ـ أي بعيوني أخي ، رُوحي أُعطيكَ إياهَا ..

يَبتسمُ صَالح بوجهه الذي كَانَ النُورُ مَلبسهُ والسُرور مَسكَنهُ والرُوحُ مَعفرهُ ، لكن في هَذه المَرة كانت روائحَ غدَرٍ ومَكيدةٍ قد حلت محل النور ، لا أَحدَ يَعرفُ من أَينَ أَتت و لكنَهَا أتت و انتهَى كُل شَيء :

ـ أُريدُ أن أستَدين منكَ مَبلغ المَال الذي أَخبرتني عنهُ و سَوف أُعيدهُ لكَ عندما أبدأ بالعَمل في تُركيا ..

يَثقُ بكَ بُرهَان أَكثر من ثَقته بأَمُه و إخوته ، و عندما قَال لكَ بأَن الرُوح تَحتَ إمرتَك فإنهُ كَانَ صَادقاً جداً ، نَعم هُوَ الذي لم يَخرُج من فمه عَيبٌ| ولا سَبٌ ولا شَتم ، هُوَ الذي اتَخذكَ خَليلاً لأَنكَ تُشبهُ بكُل صَغيرة و كَبيرة..

أَتذكر عندما قَامَ يُخرجُ المَال من بَين ثيابه ، أَتَذكُر عندما وضَع لكَ المال أمَام عَينيكَ ! ، أَتذكُر عندما قال لك :

ـ هَذا المَال ، لا أُريدُهُ ، فَهوَ مني لك ..

رُحتَ تَرفُض عَرضَهُ وتُرمِمُ صدقكَ .

عَن أَبي هُريرة رَضي اللهُ تَعالى عنهُ ،
عَن النبي صَلى اللهُ عَليه و عَلى آله وَ صَحبه و سَلم أنهُ قَال:
كَان رَجُل يُسرفُ على نَفسه ، فلما حَضَرهُ المَوت قَال لبنيه: إذا أَنا مُت فَاحرقوني ، ثُمَّ اطحنوني ثُم ذُروني في الريح ، فَوالله لئن قَدر عَلي رَبي ليُعذبني عَذاباً ما عَذبهُ أَحد ، فَلمَا ماتَ فُعل به ذَلكَ ، فأَمرَ الله تعالى الأرض فقال :
اجمعي مَا فيك منهُ ففعَلت ..
فَإذا هُوَ قائمٌ فقال :
ما حملكَ على مَا صَنعت ..
قال : خَشيتَكَ ..
فغَفرَ لهُ ..
خَشيتهُ تلكَ الرَجفة التي فيهَا الحبُ والطَمأنينة ، تلكَ القَشعريرة الُمغطاة بجلباب الرجاء ، تلكَ العَظَمة التي قَاسمَتكَ مُنذُ طُفولتكَ ، تلكَ اللذة الإيمَانية التي لن تتكرر ، و إن تكررت فذَاكَ الجمالُ الذي يرسوا عليه قلبك ..
هَيا قَلّب صَفحات جَوفك ، انزع تلك الأوراق الداكنة المُلوثة بالذُنوب ، أليسَ اللهُ بستَارٍ العيوب ! ، احرق درنَ تلكَ

الأيام و اجمع رُفاتهَا وألقهِ في يَوم عَاصف ، هُنَاكَ حَيثُ زوابع العَودة تَعصفُ بالدَرب المُتسربةِ منهُ رَائحة الوَرد ..
و انثُر بَقاياكَ بشموخٍ كي تُطهِر ذَاتك بالجُنون ..
إنهُ هُوَ الجُنون بعينه عندما ردَكَ بُرهَان ، وأقسمتَ أن تُعيد اليهِ مَا أَخذتَ ، إنهُ الدين المُعلق في كُل وَقت يُلاحقُكَ أينما اتَجهت ..
إلى أينَ اتَجهت يا صَالح ! ..
إلى حَيثُ الهَباءُ المُشَتعلُ بالخَوف والجُبن والهُروب ، تَظنُ بأنكَ سَوفَ تُفلت منَ الله ! ، كَلمةٌ وَاحدة جَرِّدهَا ودَثرهَا وألبسهَا وعرِّهَا وافعل بهَا مَا شئت ، بَل جُملةٌ مُركَبةٌ من كُل شَيء و مَسلوخٌ عنهَا كُل شَيء ، تَزحفُ إليكَ كلما حَاولتَ أن تَتَناسَى ذَاتكَ ، جُملَةٌ وَاحدةٌ أنتَ عَلى ذمتهَا تَنتَظرُ قيامتكَ ، عندما تَجثُمُ خَائفاً وتَخِرُ قواكَ باكياً تَتَلعثَمُ بعرقكَ وريقكَ مُشرئباً ، تَقولُ لكَ :
ـ و كُلُهم آتيهِ يَومَ القَيامة فَرداً ..
زَحفاً ومُنفَرداً تَأتي باكياً شَاكياً ، ولكن من سَوفَ يُبرئُ ذمتكَ ؟ صَدقني لا أَحد ، بل ستتراكُم عَليكَ تلكَ النُصوص

التي كُنتَ تُرتَلهَا آناء الليل وأَطراف النَهَار بكُل مَا أُوتي الفَزعُ من قُوة :

ـ و اتَقوا يَوماً لا تُجزى نَفسٌ عن نَفس شَيئاً ولا يُقبلُ منهَا شَفاعة ولا يُؤخَذُ منهَا عَدلٌ ولا هُم يُنصَرون ..

لن تُشَفى مما جنتهُ يمينكَ ، حَيثُ يُنكرُكَ يَمينُكَ و شمالكُ وكُلُ ما فيكَ يتبرأُ منكَ ويُلقي بكَ خَاوياً فارغاً يحومُ فوقَ هَمكَ التأنيبُ كمَا يَحومُ الذُبابُ فَوقَ كيس القُمَامَة :

ـ يَومَ تَبيضُ وُجوهٌ و تَسودُ وُجوه فَأمَا الذينَ اسَودت وُجوهُهم أَكفرتُم بَعد إيمَانكُم فَذُوقوا العَذاب بمَا كُنتُم تَكفُرون ، وأَما الذينَ ابيضَت وُجوهُهم ففي رَحمة الله هُم فيهَا خالدون ..

إنهُ الخُلود المُبلل بالعَذاب المُخضَب بالقَسوة ، حينها سَوفَ تَعلم يَا صَالح ما الذي يعنيه اسمُك ، (صَالح)..

أنتَ تُسَابقُ الزمَن الآن ، تَخرجُ عن مَا كَانَ وَالدُكَ يَتمناهُ ، تَتَمنى لنفسكَ حَياة أنتَ في نَفس الوَقت تُنكرُهَا ، و لكنك تُنكرُ ذَاتَكَ بَعد كُل ذَنب ، و تَحسب ما تَصنعهُ هَيناً وهُوَ عند الله عَظيم ، إنك تَستَصغر طَعمَ البَركة حَيثُ قُلتَ يَومها :

ـ كُنتُ أَعيش في كذبة ..

هَل كَان اسمُكَ كذبة ! ، وتَربيتُكَ كَذبة ! ، وصَلاحُكَ كذبة ! ، أم أنكَ الآن تَسبحُ في وَحل الكذبة ! ..

صَاحَبُكَ بُرهَان ، أتَذكُر عندما أدرتَ لهُ ظَهركَ ! ، و حملتَ تَعبهُ في جَيبكَ ! ، وسرتَ إلى حَيثُ اللاعودة ، لكن الذَاكَرة التي تَقولُ لكَ :

خَسئت !! ..

تتمسمرُ تَحتَهَا ، تَتَرجى شَبحهَا ، تَخشَى أن يَقلبَ اللهُ عَليكَ الأرضَ عَليهَا سَافلهَا ، لكنك أنتَ سَافلُهَا حَيثُ أوصَلتك قافلتكَ المُحملة بالعُيوب إلى هُنَا ..

هل أنتَ هُنَا الآن !؟ ..

لن تَكونَ هُنَا حتى تَخرُجَ من هُنا ..

هُنا ليسَ مَكانكَ ، ولا هَذا الوُجود سُكناكَ ، ولا مَا تُخبئهُ من مال هُو مالكَ ، يَجب أن تَكونَ هُنَاك حَيثُ تُقامُ الصَلوات وتُرفعُ الدَعوات وتُصَامُ النَوافل مع المَفروضَات ، حيثُ يُنشَدُ للحَبيب المُصَطفى ، بينَ أكابر الصَالحين وتُوزع الحَلوى على الحاضرين ، وتُمسحُ الأكُفُ على رَأسكَ ، و يُشَارُ على اسمكَ و يُقَال :

هَذا صَالح ، ابن أبي صَالح ، ابنَ الرَجُل الصَالح ..

تُحاولُ أن تَفتحَ عَينيك بُكلُ ما أُوتي النُورُ من قُوة ، تُريد أن تغتسل وتتَوضَأ ، تُريد أن تَقفَ على سجادَتكَ التي ألقيتَ بهَا على أَحد الطَاولات كمُودَيل ..

تَتَهرب من الجُلوس على تلكَ المنضَدة ، تَخافُهَا لأنَّ فيهَا ذَاكرتك ، تَسمعُ صَوت أُمكَ و هَي تَقولُ لكَ :

هَل صَليتَ العَصر ! ..

تَهُزَ برأسكَ أنَك فَعلت ، و أنتَ الصَادق الذي لا يُكررُ عليكَ السُؤالَ ذَاتهُ ، و لكنك تَستَمع إلى صَوت من بَعيد ، بَعيدٍ جداً ، يزحفُ إلى قَلبكَ يُريد أن يَجتَثَ شَراييكَ ويُفكُ شيفرةَ نَظراَتكَ ، تَقفُ على قَدَميكَ تُحَاولُ الخُروجَ من الحَمَام ، تَتَعثَر بقَميص مُلقى أرضاً ، تَقعَ و تَحاول ، لكنكَ تُريد أن تَعرف من أَينَ يأتي ..

إنهُ صَوتُ النُور ..

فبما رَحمةٍ من الله لنتَ لهُم ولو كنتَ فَظاً غَليظ القَلب لانَفضوا من حَولكَ فاعفُ عَنهُم واستغفر لَهُم وشَاورهُم في الأمر فإذا عَزمتَ فَتوكل على الله إنَ الله يُحبُ المُتوكلين ..

آل عُمرن 159

لَقد جَاءكُم رَسولٌ من أنفُسكُم عَزيزٌ عليه ما عنتُم حَريصٌ عليكُم بالمُؤمنين رَؤوفٌ رَحيم ..

التَوبة : 107

إنهُ النُور يا صَالح ..

تَختلس النَظرَ حَولكَ ، تُحاول أن تُمعن النَظَرَ في المكان ، تُريد أَن تعرف مَا يَحدثُ حَولكَ ، تَتَداخل خُيوط النُور من كُل منَافذ البيت ، تَهربُ من ذَاتكَ ومن مُستَنقعٍ أنتَ غَارق فيه ، تَصيحُ بأَعلى صَوتكَ وفَزعكَ :

- يا أبي !! ..

لا أَحدَ يَسمُعك ، أنتَ الذي اتَخذتَ الظَلامَ مَسكناً تَتَخبطُ به يَمنةً ويَسرة ، أنتَ من جَعلتَ الليلَ نَهاراً والنهارَ لَيلاً ، أنتَ صَاحب المَلامَة التي لن تُشفى منهَا مَا صَحيت ..

هَا هُوَ النُورُ يُغرقُكَ من كُل منَافذ بَيتكَ ، يَجتَاحُ زَوَايا البيت ، يَعجُ وتَغرقُ به ، ولأول مَرةٍ تَشَهدُ بأنَ للنُور أمواجاً

تَلطمُكَ وتَسحبُكَ ، تَسمعُ صَوتَ أُختكَ الصُغرى التي تَزوجت رَجُلاً يكَبرُهَا بعشرينَ عَام ..

ألستَ أنتَ من زَوجتهَا لذاكَ الغَريب ..

هيَ الصَابرة الرَاضية المُحَتسبة التي أوكَلت أَمرهَا إلى الله ، هل يُريدُ اللهُ كُل تلكَ التجَارة البَاطلة في بَيع الإنَاث في سُوق المُهور ، كَثيرٌ من الأسئلة ألقت بذاتهَا في خَلوتكَ ، تَهجم عَليكَ كَأنهَا جَيشٌ من الهُموم ، لو كَانَ وَالدُكَ على قَيد الحَياة هَل سَيرضَى بهذا الزَواج !؟ ..

أنتَ وَحدكَ تَعرف الجَواب ، وهي التي سُحَبت من سَاحَة البيت تُنَاديهَا بصوت الأُبوة من بَعيد :

يا آمنة ..

تَجري تلكَ الصَغيرة التي وَسَدت مُستَقبلهَا على كَاهلكَ ، ورُحتَ تَنظرُ إليهَا نَظرة الوَداع ، اعتنوا بهَا جَيداً واجعلوها تُدخل القَهوة إلى الضَيف ..

انكمَشَ قَلبُ أُمكَ دَاخل قَفصهَا الصَدري ، تَشعُرُ بأَنَ الهَواء يخنُقهَا ، شُعور المظلومة التي لن ينجدهَا أَحد سوى كَرامة الله تعَالى ..

ـ مين بغُرفة الضُيوف .. !

تَنظُرُ إلى أُمكَ التي لا زَالت تَرتَدي ثَوب الحدَاد على وَالدكَ ، عُيونٌ غَائرةٌ من البُكَاء و أَجفان رائبة تُقَاضي الحُزن ، شَفاهٌ مُتعَبةٌ تُتمتم بحمد الله وبكَماله وكرمه ، وسُبحة تَحملهُا بيمينهَا ، ومَلامَحٌ مُكَسَرةٌ قد أَناخَ بهَا الفَزع :

ـ جَمَال السمَان ..

تُجنُ الحَنونة عندما تَسمع بهذا الاسم ، جمَال النَصَاب الذي رَفع خمس فيلات في حَي الزَيتون من الرَشَاوي وأَكل الحَرام والمُعامَلات المُلفَقة والغَير قَانُونية ، عندما يَستَمعُ أهل حُمص بهَذا الاسم تَقشعر الأَبدان وكَأنَ الأَمعاء سَوفَ تُفرغُ كُل مَا بهَا من فَضَلات ، إنسَان ولكنهُ من فَصيلة الحَيوانات النَجسَة ، تلكَ الحَيوانَات التي لا بُدَ من غَسل يَدكَ سَبع مَرات بالتُراب إحداهُنَ بالمَاء من بعد لَمسَها :

ـ و شُو مَدخلو عَا بيتنا هَذا الحَرامي ! ..

تُلمَلمُ في صَدَركَ غَضبكَ ، وتَعلو وَجهكَ حُمرة عَدم الرضَى بما تَسمع ، تَحاولُ أن تَتَفادى مَا تَقولهُ أُمكَ ، تَحاولُ أن لا تَصطدم معها ، تُخبئ غَضَبكَ عنها ، لا تَكتَرثُ بهَا :

ـ آمنة .. يلا بسُرعة ..

تُمسكُ أُمكَ ساعد آمنَة بقوة ، تَنظُرُ إليكَ نَظرةَ اللبوة إذا أحد اقتربَ إلى أَولادهَا ، تَشتعلُ تَحتَ عَينَيها شَرارة غَضَب تُحرقُ كَل ما في هَذه المدينة ، تَزأرُ وتَثأر مُدَافعة عن حُدودهَا :

ـ اسمع يا صَالح .. بناتنا مَا بتنكشف قدام حَرامية ، فَهمت يا أمي ، وإذا ببالكَ شَيء ثَاني فَتأكد أنكَ ما رَاح يوصلوا ضَيفكَ ، بناتنا تَربن على الحَلال وغَير ولادَ حَلال ما بَعطيهن فهمت ! ، ولو على جُثتي ..

يُجنُ جُنونك بَسماع هَذا الكَلام ، هَذه أول مَرة تَقف أُمكَ في وَجهكَ ، لعَل الطَريق الذي في دمَاغكَ بعدَ مَوت أَبيكَ وَعر ووَعر جداً ، يجبُ أن تَجد طَريقاً أَقلُ خُطورةً:

ـ بأمرك يا أَمي ، بس أعملولنا قَهوة ..

تشَحذُ أُمكَ نَظَراتهَا مَرةً أُخرى ، تَحاول أن تَكظُم غَيظهَا ، تَشدُ من سَاعد أُختكَ وتَسحبهَا إلى غُرفتهَا و تُغلق عَليهَا البَاب بإحكام ، تَنظرُ إليهَا من النَافذة وتسمعهَا كَلمة هي لكَ:

ـ إذا بَسمع حسك لسَانك بَقطعلك إياه ..

تَثبتُ في مَكانكَ خَوفاً من هَذه القُوة وتَأتي إليكَ تَدبُ بحذائهَا المُدبدَب ، تَهزَ الأَرضَ من تَحت قَدمَيكَ ، مُرتَديةً غطَاءَ

صَلاتهَا الأَبيض تَأتيكَ كَعاصفة تُريد أن تجتثُكَ أنتَ و ضَيفكَ ، تَرجع القَهقَرة ، تُلامسُ أَصَابعكَ رَأسكَ وتَمسحُ وَجهكَ كَي تُغَير جُعودة الغَضَب على وَجهَكَ تَقفُ أُمكَ أمَامكَ هَائجة مُدَافعة ومُنَافحَة عن بناتها :

ـ رُوح أنتَ أعمل قَهوة لَضَيفكَ ..

و تَتركُ لكَ الدَهشَة تَتَسلى مَعكَ ، تَتَركُ لكَ المسَافات وكُل مَا تَرغب بالوصول إليه كَي تَجُر هَزائمكَ ، دوار خُرافي يَطوفُ حَولكَ يَقولُ لكَ :

مَاذا دَهَاكَ ! ..

لا شَيء مُجَرد رَعشَة جُنون ، جُنونٌ مَكنون مُتَربصٌ بكَ منذُ أن تَوفى اللهُ أَباكَ ، ولكَأنَ سَلبيات المراهقة سَوفَ يدَفعُهَا عنكَ غَيركَ ، و من مَثَلاً ! :

أَخواتُكَ !؟ ..

تَشتدُ عَليكَ المَواجع كُلما تَشردَقتَ بالنور ، يَسحَبُ بكَ إلى البداية ، بل إلى أول خَيطٍ من الظُلمة لتُمسكُ به ، تَشدُ الوثاق معهُ و تَتَهاذى ..

تَتَساءل هَل أنتَ على قَيد الحَياة ! ، أم فاَتكَ كُل مَا كُنتَ تَرجوه من تَوبة وعَودة ! ، تَسمعُ آياتٍ تُرتَلُ فكَأنكَ تَعرفها ، صَوتٌ من مَكَان بَعيد يَصدرُ عَبرَ السَير إلى اللا مُنتهى ..

أنتَ اللاَ مُنتهَى وكُل مَا حَولكَ يَسير بغَير رَغبة بمَا تُريد ، لكنَك أنتَ تُريد وما حَولُكَ يُريد واللهُ يَفعل مَا يُريد ، فَأنتَ على قَيد قَضَاء الله وقدَره ، اللهُ الذي فَتحَ لكَ بَاب الاختبار فَاختَرت مَا لا تَرجوهُ ، كَانَ رَجاؤكَ بالبُعد والسَير إلى الهَلاك ، ومع أنَكَ تَعرف بأنَك تَزحفُ إلى الهَلاك ، كُنتَ تَتَخبطُ هُنَا و هُنَاك ، وهَا هُوَ الصوتُ يَعود كُلمَا عَجَّ ضَبابُ النُور عَالياً نَحوَ رؤُياكَ ، هَل كنتَ تَعرفهُ ! ..

ـ وما أَرسلناكَ إلا رَحمةً للعَالمين ..

إنهُ القُرآنُ ولكن بصوت من ! ، تَحاول أن تَكتَشف وتُنَقب عن مَصدر الصَوت ، بذراعكَ تُزيلُ الضَبابَ وغيوم النُور كَي تَرى مَا يَجري أَمَامَك ، تَرى تَلة كَبيرة يَجلس فَوقهاَ رَجلٌ كَبير قد فَتَح مصحفَهُ ، هَا هُوَ يُعيد الآية الكَريمة :

ـ و ما أرسلنَاكَ إلا رَحمةً للعَالمين ..

تَخشَى أن تَقتربَ إليه ، أنتَ الذي كُنتَ تَقول سَابقاً أنكَ لا تَخشَى شَيء ! ، هَا هُوَ الرُعَب يُحَاصرُ سَدكَ ومَدَكَ وجَزَركَ ، هَا هُوَ النُورُ يُسورُ وُجودكَ بينَ مَشَاهد كنتَ تَكرهُ أن تَستَرجعهَا ، هَا هي اللحَظات الكَاذبة التي صَنعتها من أجل أن تَبني لكَ كَياناً يَليقُ بخَيبتكَ ، هَا هي الخَيباتُ تَكسرُكَ و تُحَطمُ مَجَاذيفكَ وتُلقي بكَ في طَريقٍ مُعتمٌ بضَباب النُور ، أنتَ الذي تَتَساءل الآن مَا الذَي أَحضَركَ إلى هُنَا ، ولكن بالفعل لمَاذا أنتَ هُنَا !! ..

أنتَ تُريد هَذا الصَوت ، تريد أن تَعرف أينَ أنتَ ، تُريد أن يُكشَف الحجَاب وتَعلم بأنَك في حَياة أو مَمَات ، و هَل المَوت مُغلفٌ بالنُور ..

يُرعبُكَ صَوتُ القُرآن كَمَا أنهُ كَان يُشعركُ بالحَياة سَابقاً ، خِطتَ حَياةً على مزاجكَ وعلى مَقاس ردتكَ و تَعاسَة قَلبكَ ، دَائماً كُنتَ تَقول :

ـ هَذا ليسَ أنَت ، فمن أنَا ..

أنتَ ذَاكَ النَقي الذي رُبيتَ في بيت الطُهر والخَوف من الله ، ولكن لم يَعُد أيُّ شَيءٍ يُخيفكَ ، لا ظُلمَةٌ ولا نُور ، كَانَ أبوكَ يدَعو دَائماً :

ربنا هَب لنَا من أَزواجنَا وذُرياتنا قُرة أَعيُن واجعلنا للمُتَقينَ إماما ..

هَل أنت قُرة أعيُن ! ، أم أَنك حَسرةٌ ونَدامةٌ إلى يَوم القَيامة يا هَذا ، تُرتَلُ الآياتُ أَمامَ سَمعكَ وكَأنك لأَول مَرة تَستَمع إلى القُرآن ، حَيثُ كنتَ فيمَا مَضَى ، وكُل يَومٍ تَقرأُ ثَلاثة أَجزاء حَتى هَجرتهُ ، هَجركَ هُوَ أَيضاً إلى الظَلام وإلى الحَفلات الصَاخبة والأجساد العَارية والمُسَكرات والمَلذَات والذُنوب ، تَلُوم من هَجَركَ ، لأنَ الأشياء إذا قَل الاهتمام بهَا أَيضاً فهي تَهجُركُ ولا تُعطيكَ ما كُنتَ تَرجُوهُ في رَاحَتكَ ..

ـ اقتَرب يا بُني ..

صَوت الرَجُل يُنَادي بكَ ، إنهُ أَقرب إلى صَوت أَبيكَ ، يَقعُ قَلبكَ مُرتَطماً بالمَاضي الجَميل الذي لم تتلوث به بل كُنتَ أَشدُ طُهراً ونَقاءً ، تُحَاول أَن تَهرُب ولكنَّ كُل أبواب النُور أُغلقت في وَجهكَ ، كَأن لا مَلجأ لكَ إلاهُ ..

ـ لا تَخَف يا بُني اقترب ..

تَأخُذُكَ قَدماكَ إليه حبواً ، حواسُكَ تُجردُكَ من القُوة كَي تَذُوبَ ذُلاً وانصياعاً للأمر ، تَحارُ بكَ الدَهشة ، كيفَ تهفو إليه بغير اختيارٍ منكَ ، وتُبحرُ إليه كَسَفينةٍ انهارَ بها كُل مَا فَيها ..

كَان ظَهرهُ مُنحَنياً ووجههُ لا يُرى منهُ شَئ ، غُترتهُ البَيضاء تُغَطي رَأسَهُ ، عباءتهُ السُكّرية تُخبئ ظلهُ وصَوتهُ دافئ مخملي كَطعم الأمان :

ـ السَلامُ عَليكم ..

طوى صَفحة المصحف الذي بينَ يدَيه ، بلل إصبعهُ بلعُابه وقَلبَ الصفحة التي تَليهَا ، كُتِبَ على وَرقةٍ صَغيرةٍ مثل إشارة وَقف ما بين الصَفحات :

فَأما بنعمة رَبك فَحدث ..

حَدثَتهُ نَفسهُ بأَشياء كَثيرة ، كَأن يَسألهُ من أنتَ ! ..

يُجَيبُ الشَيخ كَأنهُ عَرف مَا يَدورُ في دمَاغه :

ـ أنَا عَملُكَ الصَالح يا صَالح ..

تَهبطُ رُوحكَ من سَقف جسدكَ كَأنها شُرفة ووَقعت أَرضاً ، تَبتلع ريقكَ المُتحطب ، تَجمع أَشلاء خَوفكَ خَلفَ شَرايين

خَوفكَ لتَظهر على وَجهكَ صُفرة ، فَأنتَ الذي وَصَلت إلى المَرحَلة التي لم تَعُد فيها تثقُ بعمَلكَ الصَالح ..

أليس أباكَ من سَمَاكَ صَالح !! ..

ـ يا صَالح لا تخف ، اقترب فَأنَا عَملُكَ الصَالح ، أُنسُكَ إذا فَقدت الأَحبة ، حَبيبُكَ إذا ضَاقت بكَ الدُنيا ووحشة الوَحدة والقُبور ، رَفيقُ دَربكَ إلى الله ، الشَاهد الوَحيد الذي سَيُنجيكَ أمَام ميزان الله ، أنَا الآن كَهلٌ بَسبب مَا جَنتهُ يُمينكَ يا صَالح ، كُنتُ فيمَا مَضَى شَاباً يافعاً كُلمَا تَراكَمت في صَحيفتكَ الحَسَنات ، وفَجأة لم يَعُد يَأتيني شَيء أَبداً .. كُنتُ أَنتَظركَ في كُل وَقت صَلاة ، في كُل نَافلة ، في كُل صَدَقة ، في كُل لَحظة بر ، في كُل عَمل خَير ، في كُل مَجلس ذكر ، في كُل آية تُقرأ ، في كُل صَلاة على النبي مُحمدٍ تُرفع ، في كُل شَفق فَجر وفي غَياب كُلِ شَمس ، حتى لم يَأتني شَيء ، أَين كُنتَ يا صَالح ! ، و مَاذا كُنتَ تَفعل !؟ .. انَقطع عَني كُل شَيء حَتى هَرمتُ وتَراكمت عَليَّ الظُلمَات و بتُ وَحيداً أُرممُ وَحدتي بما كُنتَ تَقرأهُ ، أَتَوقفُ عند كُل آية و خُصوصا ما كُنتَ تُرددُه :

ـ وَ ما أَرسلنَاكَ إلا رَحمةً للعَالمين ..

هَكذا رُتلتِ الآيات ..

لتُزيل أَزمةً عن صَدَركَ المُتصحر ...

ـ و ما أَرسلنَاكَ إلا رَحمةً للعَالمين ..

تَخفضُ رَأسكَ أَرضاً ، تنسَحبُ شُحوبة القَلب نَدماً ، هُوَ رَسول الله الذي قَال :

ـ النَدمُ تَوبة ..

يَصمتُ الشَيخ في حَضرة النُور ، تَرحَلُ مع الصَمت كنسمةٍ خَافتةٍ قانتةٍ سَاكنة ، لم تَرَ عَملكَ إلى الآن ، لم تَرَ وَجهَ الشَيخ الذي يُخَاطبُكَ ، تحاول أن تـتعرف على عملكَ عنَ قُرب ، ولكنهُ خَفضَ رَأسَهُ مُختبئاً خلفَ غُترته :

ـ هَل لي أن أَعرف أينَ أنَا ! ..

يَفتحُ الشَيخُ مصحَفهُ ، يُمسكُ الإشارة بيده ، يُرتَلُ آية فتختلجُ أَنفاسَكَ ويتبددُ صَمتكَ :

ـ إنَ الله و مَلائكتهُ يُصَلونَ على النَبي يا أَيهُا الذينَ آمَنوا صَلوا عَليه و سَلموا تَسليماً ..

تُحلقُ بكَ الذَاكرة إلى مَسجد سَيدنا خَالد بن الوَليد في حِمص ، تَطوفُ حَولَ المَقام ، تَتَداخَل خيوط الشَمس من كُل ثُقوب

القَفص ، ينشَقُ المَقام سُطوعاً ، تَهبُ نَسائم الذكر حَولَ الضَريح :

محمد أشرف الأعراب والعجم ..

محمد خير من يمشي على قدم ..

محمد باسط المعروف جامعه ..

محمد صاحب الإحسان والكرم ..

محمد تاج رسل الله قاطبة ..

محمد صادق الأقوال والكلم ..

محمد ثابت الميثاق حافظه ..

محمد طيب الأخلاق والشيم ..

محمد خُبيَت بالنور طينتُهُ ..

محمد لم يزل نوراً من القدم ..

محمد حاكم بالعدل ذو شرف ..

محمد معدن الأنعام والحكم ..

محمد خير خلق الله من مضر ..

محمد خير رسل الله كلهم ..

محمد دينه حق ندين به ..

محمد مجملاً حقاً على علم ..

محمد ذكـــــره روح لأنـفسنـا ..

محمد شكره فرض على الأمم ..

تَرى القَوم حَولَ صَاحب القَداسة تَميلُ رُؤوسهم كَأَنَهُم بُشروا بالجَنة ، يكتسحُ سُكونكَ الشَيخ قَائلاً :

ـ أنتَ في بَرزخ النُور ، طَلبتُكَ كَي أرى مَا ألمَّ بكَ ! ، أَخشَى عَليكَ يَا صَالح ..

يَهتزُ قَلبكَ من برزخ الأَنوار ، يَرتجفُ وجدكَ من هبوب الشمُوس ، لقد بدَأت الذَاكرة تَعودُ لكَ من بعد أن أَذابهَا السَكرُ ، لَقد خَرجتَ مع صَديقَتكَ نَاظلي إلى خَمَارة الحَي ، اعتدتَ دُخولَ سرداب الظَلام ورُؤية اللحُوم البيضاء وسَكبِ الخُمور قَبل كل فَجرٍ والضَحك بصوت عال ..

تُريد بالعلو أن تَعلو على كُلَ مَا كنتَ تَراهُ عَظيماً كَأبوَيكَ ودينكَ وضَميركَ و ميزَان الله ..

إنهُ ميزان الله الذي لا يُظلمُ عندهُ أَحد ، وأَعظم مُصيبةٍ يَرتَكبُهَا المُؤمن بحق نَفسه هيَ ظُلم النَفس ورَميهَا في المَهَالك ..

تُقلبُ صَفحة بَيضَاء نَاصعة نَقية بَعد أن وُوري أبوكَ تَحتَ التُراب ، تتهرب من الفَضيلة مُطَارداً ضَميركَ بالشَهوات ،

تَشتهي كُل مَا حَرمهُ الله وتُحرمُ عَليكَ كُل مَا كُنتَ تَتَلقاهُ ، تُصَابُ بتَخبُط نَفسي يُدخلُكَ في دَوامة بَينَ المَاضي والحَاضر ..

أنَا لستُ أَنا ..

نَعم في الحَقيقة أَنتَ لستَ أنتَ ، أنقذتكَ لَحظةٌ خَافتة كُنتَ تَقودُ بهَا عَجوزاً كُلَ فَجر إلى المَسجد ، عَجوزاً أعمى ، إنهُ ليسَ أَعمى بَل إنهُ ذاكَ البَصير ولكن لا تَعلمون ..

تَقرعُ البابَ بتؤدة :

ـ أَنتَ جَاهز يا حَج ! ..

يُسمعُ خَلفَ البَابُ حركة عُكاز يَخبطُ أَرضاً ، وحَفيف حذاء يمسح المَمَر ، و نَفخة نُور تسيرُ مع الفَجر ، أصوات المآذن تَضُخُ نَفحَاتهَا تَعبرُ الأَسرة الدَافئة ، تواسي كُلَ مَوجوع ، تَحنو على كُل مَفجوع ، تُزيلَ النَوم عن كُل مؤمن :

ـ الصَلاةُ خَيرٌ من النَوم ..

تتعرى الأجسادُ من النَوم ، تُستلُ من الأسرة ، تَنفرُ إلى دَورات المياه ، تَغسلُ أعضَاءهَا بالمَاء ، تَدعوا بأثَر الوضوء :

اللهم اجعلني من التَوابين واجعلني من المُتَطَهرين ، سُبحانَك اللهُم إنَي كُنتُ من الظَالمين ..

ـ أنتَ أَجيت يَا صَالح !؟ ..

تَنتَظرُهُ خَلفَ البَاب ، تُنيرُ وُقوفكَ (لمبةٌ) مُعلقة على أحد أَعمدة الكَهرباء ، صَوتُ الجَارة يُسمعُ وهَي تُيقظُ زَوجها:

ـ أَبو سَعيد ، قُم فقد أَذن للفَجر ..

تَبتسمُ كَأنهَا رُوحٌ مُفعَمة بالطيبة ، الجَارة المُؤمنَة أُم سَعيد صَاحبة اليَد البيضاء ، أَطيب طَباخة في الحَي ، السَيدة الفاضلة التي يَشهدُ لهَا أهل حِمص القَديمة :

ـ أيوة يا حَجي أَنا صَالح ..

يُفتحُ الباب ، رَجُل ضَرير بسن الرَحيل ، تَجهزَ للذَهاب إلى الصُفوف الأَولى لصَلاة الفَجر ، وأُمة شُبانهَا لياليهم نَهار ، ونهَارُهم لَيل ، إنهَا الهمة المَجبولة بخشية الله تَعالى ، خَشيةٌ في ذروة الشَوق لطَرقِ الأبواب والعَودة إلى الأَهل والأصحاب ، تُمسكُ بكفه اليُمنى وتَسيرا معاً إلى بَيت الله ، كَأنهُ نُورٌ يُمسكُ بنُور ..

عن بُريدة الأَسلمي ، عن النبي صَلى اللهُ عَليه وعلى آله وصَحبه وسَلم قال :
بشّر المشَائينَ في الظُّلم إلى المسَاجد بالنُور التَامِّ يَوم القيامة

رواهُ أَبو دَاود والترمذي

ذاكَ النُور الذي كَانَ يَغلي في قدر الفَجر ، الرَاحة الأَبدية التي تَخترقُ أنفاسكَ ، تُجَذفُ بنَدى الوَجد في بَحر الطَاعة ، تصطفُ مَلائكة السَمَاء في طَريق عَودتها إلى الله الذي هُوَ أعلمُ بهَا منَها ، تَبتَسمُ مَلائكة الله حَتى تَتسَاءل من هَذا :
ـ إنهُ أنتَ يا صَالح ..
الفَتى الذي نَشأ على طَاعة الله في بيت الطَاعة بينَ كَنف أَبوَين كَستهُما الخَشية ، عُكاز العَجوزُ تتحسسُ صَدى الدَرب ، فَمهُ قد فُتحَ للهواء وعيناه جَف فَيها السَواد حتى ابيضَت من الحُزن فَهوَ كظيم ، وقَميصٌ أبيضٌ يَتجهزُ إلى المَوت ويُعد العُدة قَبل الرَحيل ، ليسَ معهُ زَادٌ ولا عتادٌ إلا عملهُ الصَالح الذي ادّخرهُ لَقبره ، يتخذُ من الزَاوية الأمامية اليُمنى للمسجد مأوىً لهُ يُرتَلُ آيات من الذكر الحكَيم ، يَختمُ كتابَ

الله عن ظهر قلب كُل خمسة أيام ولا يَرى شَيئاً سوى النُور الذي أعطاهُ اللهُ لهُ ، ليسَ كُل من فَقدَ بصَرهُ أعمى ولا كُل من فَقد لسانهُ أخرس ولا كُل من فَقد سَمعهُ أطرش ، فَهُناكَ بشَرٌ كالدواب يَدبُونَ على الأرض ظُلماً وعدواناً بغير عِلم ، ولكن شَتان بين من أبصرَ وهُو مُبصر ومن عَمى عن الحَقيقة وهُوَ مُبصر ، فَلعلَ من اتَبعَ الحَق وهُوَ أَعمى أَشَدُ إبصاراً من كُل المُبصرين ..

تُوجههُ عَابراً الأَزقة إلى بيت الله ، و اللهُ الذي لا يَقطعُ أَحداً من خَلقه يَنظُرُ إليكَ ، هُوَ المُستَوي على عَرشه البَائن على خَلقه ليس كَمثل شَيء في الأرض ولا في السَمَاء وهُوَ السَميع العليم ، تَبتهجُ الطُرقات بُشراً وسُروراً وتتفجرُ الأنوار ضياءً وبَخوراً ، وكُل يُغني على لَيلاهُ يا صَالح :

ـ هل حَقاً هَذا مَا كانَ يَحصُل !! ..

تَصل إلى الجَامع حَيثُ يُجمعُ بها أهل المَوانع ، القَومُ الذينَ منعوا أنفُسهم عن المَلذات لوجه رَب الأرض والسَماوات :

ـ نعم هَذا مَا كان يَحصُل ..

حتى حَصل أن استَيقظتَ من سَكرتكَ ، كَانَ الممرُ مُظلماً جداً ، تترنحُ كَأنكَ عَجينة قبل الخَبز ، تمسَحُ العَرق من

جَبينكَ ، تَرى الممر يتمارى أَمامَ نَظركَ كَأنهُ شَبحٌ يُريد أن يَنَقضَ عَليكَ ..

هَيا قُم يا صَالح ..

و تَعود إلى الحَمّام ، تَخلعُ ثَيابكَ وتُلقي بهَا في حَوض الغَسيل ، تفتحُ صُنبور المَاء على جَسدكَ ، يَهبطُ المَاء من ثُقوب الصَنبور كَالشَلال يَمرُ بسواقيه عَابراً مَفاتل عَضَلاتكَ التي لم تَنضُج بعد ، تَشعُر براحةٍ دَاكنةٍ تَحتَ المَاء السَاخن ، يَسيلُ مُندفعاً ويَجري بكُل صَمت خلفَ حُدود هَذا الجسَد ، يَمرُ بكماله الساحر ليُقوّمَ هَذا الكَيان ، إنهُ جسدٌ خصِبٌ نبتَ من لَحم حَلال مُتعطش للطَهارة والنَقاء ، تَسيرُ عَقاربُ السَاعة قَاطعة 40 دَقيقة ، والماءُ يَنصبُ فوقهُ مُطهراً مَسَاماتِ جَسده ، يَخرجُ من حَوض الحمّام والبُخارُ يَشتعلُ لهَباً عابراً سَقفَ الحمَام ، يُجففُ بقايا ما كَانَ يَخافهُ بمنشَفة بَيضاء نَقية مُحاولاً التَخلُص من كُل مَا عَلق في الجَسد ، يَسيرُ إلى الغُرفة حَيثَ خزانتهُ ، كُل شَيء مَغسول ومَكوي ومُجهَز لأَية سَهرة حَمراء عامَرة بالخَمرة والنسَاء ، يُخرجُ ثَيابهُ البَيضَاء على السَرير ، يرتَدي قطعة تلو الأُخرى

ويُسَرحُ شَعرهُ أمَامَ المرآة ، هَذه أول مَرة يَرى وَجههُ عن قُرب ..

هَنا تَسيلُ على وَجنتَيه دَمعة تَشتعلُ نَدامة في جَوفه ..

يَمسحُ دُموعهُ و يُعطرُ جسَدهُ فَبينَ خُروج الشَمس وغيابهَا مَسيرة ضَلالةٍ سَار بهَا صَالحُ دَهراً ..

أول خَيطٍ للشَمس ، تَقولُ الأُغنية التي أَطفأهَا إلى أينَ أنتَ ذَاهبٌ يَا صَالح ! لا زَالَ السَمرُ في بدايته !

لا يَلتفتُ صَالح خَلفهُ ، لا يُريد أن يَعرف الدَمار الذي ارتَكبهُ بحق نفسه وحَق ذَاتهُ ، إنهُ أول يَوم لرمَضَان ، الشَوارع فَارغة من المَارة ، السَيارات تَنقُلُ المُؤمنين من المسَاجد إلى المنَازل ، انتَهت صَلاة الفَجر وصَالح يَمشي بقوة قَاصداً صَاحبَ المَقاصد ، فَلا بُد أن يَرتَاح هَذا الجَسد المُتهالك بالرزايا ..

إلى أَين تَسير يا فَتى ! ..

إلى حَيثُ الأَبدية ، رَاحة الضَمير ، صَفاء الرُوح ، نَقاء القَلب ، بلسم الوَجد ، قَشعريرة الأبدَان ، جمالية الصُدور ، مسجد الفاتح !! ..

كُنتَ تَحلمُ بأن تَدخُلهُ ، ولكنك تَخشَى من مواجهَة نَفسكَ ، هَا أنتَ تهرولُ بكُل ما أُوتي الشَوقُ من شَوق ، تحملُ عشقَ ما تَركتهُ في الذَاكرة ، تريد أن تَرى قلبكَ في مرآة بيوت الله ..

يتَلألأُ المسجدُ من مكان بَعيد ، الزينة في كُل شَوارع المَدينة ، البيوت بَدأت تُطفئُ أنوارهَا من بَعد لَيلةٍ حَافلةٍ بالروحانياتِ والأسحار ، والصَباحُ يبتسمُ لمن نوى صَومَ هَذا الشَهر ..

تُشهرُ قلبكَ للحُب على أعتاب جامع الفاتح ، تقفُ أمامَ أولِ سَارية حتى تَرى الكَون كُلهُ يَدور حَولكَ و تَدورُ حَولهُ ، يَهبُ الصُبحُ بآياته :

و الصُبح إذا تنفس ..

يخترقُ مكامنَ أنفكَ عطرُ التَوبة فتَقعُ أرضاً ، جاثماً على رُكبتَيكَ ، تَنهمرُ من السَقف أصوات كالتي تَسمعُها في الحضرة :

الله .. الله .. الله .. الله ..

تَصرخُ كي تُزيلَ هَذه الصَخرة من صَدركَ بكلُ مَا أتاكَ الذَنبُ من ألم :

اللـــــــــــــــــــــــــــــــــــــه ..

عن ابن مسعودٍ رَضي الله تعالى عنهُ ، أن رَسول الله صَلى اللهُ عليه وعلى آله وصَحبه وسَلم قَال :

التَائب من الذَنب كمن لا ذَنبَ له ..

رَواهُ ابن ماجة

سَتدُرك في هَذه اللحظة المُشَّربة بالعَودة والمشبعة بالإنابة بأن ما تركتَهُ فيما مَضَى كان مُجرد وَهمٍ كبير ، وأنتَ بكُل عنفوان ملذاتكَ كُنتَ تعلم بأنكَ تَغطُس بالوحل وتُجذفُ بكُل قواك ، تَسير في العَوم والغطس وتعلم في قَرارةِ ذَاتكَ بأنكَ تسيرُ في طَريقٍ مسَدود ، لعلهُ يَقع على صَدركَ يُحطمُ قفصكَ الصَدري ويَنتَزعُ منكَ لَذةَ النُوم والرَاحة ويُجردُكَ من الرَخاء والنَعيم ، أنتَ الذي كُنتَ ولا زلتَ تَظنُ نفسَكَ بأنكَ تَعيشُ في ذروة النَعيم ، ولكَن لن يَفوتكَ زلزالُ القَهر عندما يُهمسُ فيكَ :

ـ أنتَ تَكذب ..

هُناكَ مَرحلةٌ مفصَليةٌ تَلتَزمُ الصَمت أَمامهَا في حَياتكَ ، تُنجدُكَ من هَذا الظَلام ، تَنتشُلُكَ من قَعر مَا لم تَقتنعُ به ، تَقولُ لكَ هيا الحَقني ، هَذه المَرحلةُ هي الفَاصلُ الزَمني

للتَجديد العَقلي والروحي ، لَقد صَنعتَ تَجاربكَ بذاتكَ ، فَلم يَحملكَ على الزَلة أَحد ولا حَتى الشَيطان ، فُهَناكَ بَشَرٌ فَاقوا أبالسَة الكَون شُروراً ، مُتنكَرينَ بكُل وَسَائل الصَلاح ، ولكن من أَجل أن تَكونَ يَقظاً مُعافاً مُستَرسلاً بكُل قواكَ الروحانية حَولَ الذَات الإلهية ، يَجبُ أن تفرق بَينَ الشَرع وأتباعه .. النبي هُوَ رَحمةً للعالمين ..

الكُلُ يَدّعي الوَصل بالنَبي ، ولكن وَاقع هَؤلاء الأتباع لا يَشي باتباعهم بالنبي وإنما هُنَاكَ نوايا أُخرى هُم يَعرفُونها حَقَ اليَقين ..

كُلَ يَوم هُناك من يَعود ويَتوب من عَوام الأُمة ، أعدادٌ لا تُقدر ولا تُحصَى ، شُبانٌ بسن الورود وفَتياتٌ كنقاء اليَاسمين ، من هُنا تَبدأُ القَافية ..

القَافية تَقول بأنَ الشَرخ الذي أصَاب شُبان الأُمة هُوَ سُوء المُعاملة من "مُراهقي" الدَعوة إن صَحَ التَعبير ، فَلا يُوجد خطابٌ عامٌ جادٌ هامٌ مُحفزٌ مُرغَبٌ يَحملُ بينَ طَياته الرَحمة والمَودة والحُب وإنما تَجد الإقصَاء و التَفريق و الشَرخ الذي لا زَال يَنزف ، فأُصيبَ الشَبَابُ بالرَدة والتَخبُط وعدم التَركيز نَحوَ الهَدف الحَقيقي ألا وهُوَ رضَى اللهُ على خَلقه..

فحدثَ الشَتات الذي تراهُ والعُنف الغَير عَقلاني ، حَتى لَوثوا طَريقَ الله بالدَماء والشَر و التَحريض على الحقد والكَراهية..

يَجب أَن تَضعوا في عَقولكم ، أنتم المُتَصَدرين لدفاعكم عن الله ، بأن مشكلةَ غَيركم ليست مع الله ، كَلا ، بل مَعكُم أنتم..

نَعم أنتُم ..!

أَنتمُ من جَعلتُم النَاس تَكرهُ دينَ الله ، أَنتم من زَرعتُم في عُقول المُؤمنين الخُبث والمَكر والخديعة ، وزَينتُم في قُلوب التَائبينَ بأنَ الجَنة بحَاجة إلى تشميرٍ عن الأَرواح وزَهقٍ لأَرواح مُخَالفيكُم ، هَل الجَنة بحاجَة إلى كُل هَذه القُدور التي تَتكففُ منهَا دمَاءُ البَشَر ! ، أم أَنها نَهفة مَصلحة !؟ ..

النبي أَولى بالمُؤمنين من أَنفُسهم وأَزواجهُ أُمهاتهم وأُولو الأَرحَام بَعضُهم أَولى ببعض في كتَاب الله من المُؤمنين والمُهَاجرين إلا أَن تَفعلوا إلى أَوليائكُم مَعروفاً كَان ذَاكَ في الكتَاب مَسطوراً .

إنهُ نَبي الرَحمة أَولى بكُم من أَنفُسكم ، فَلا ولاية فَوقَ وَلاية الحَبيب المُصطفى ..

إنَ الخُبث المُتوارث الذي تَلقتهُ الأُمة من تحت ظلالكُم ، لا يعولُ عَليه خُبث ، فالويل لكَم كَلُ الوَيل مما صَنعتموه ، العُصُور تَزحفُ على وَجههَا عَصراً بَعدَ عَصر لتُثبتوا للنَاس بأنكُم جُبنَاء بالقَدر الكَافي ، لا تَتَحملونَ الحَقيقة الوَاضحة أبداً فَحُدودكم حَيثُ يَتوقف النَص وبعد ذَلك تَتَعطل الحَواس كَالذي لا يَرى ولا يَسمع ولا يَتكلم ، وَصفُهم كَوصَف من حملَ التَوراة و لم يَفقهُ منها شَيئاً :

مثَل الذَين حُملوا التَوراة ثم لم يحملوها كَمثل الحمار يَحملُ أسفاراً بئس مَثل الذين كذبوا بآيات الله والله لا يَهدي القَوم الظَالمين ..

هَؤلاء أنتم ، لا تُريدُونَ أن تتَغيروا ، كالسَنابل المفرغة من القَمح لا تُفيدونَ بشيء سوى بالنهيق والعواء لَيلاً نهاراً مُستغبين العَقل البشري ومشَاعر الإنسانية ، مُتجاهلينَ التاريخ الذي تنزفُ منُه أخطاءٌ ثقالٌ بقدر هَذا الكَون ومن مُستقبلٍ أوهَمتم أنفُسَكم بأنهُ تَحت قَبضَتكم ، قتلكم الوَهم المَزعُوم ونَحركُم الغَريب الذي جعل قُبوركم مُتناثرة عَبرَ مسَاحات من الأرض الُمغتَصَبة بعدة مُسَميات ، باسم الله تَفتعلون ما لا يرضاهُ اللهُ ولا نَبيهُ ولا أي إنسان عاقل :

يا أيهُا النَبي إنا أرسلناكَ شَاهداً ومُبشراً ونَذيراً ، و دَاعياً إلى الله وسراجاً مُنيراً .

إنها النُصُوص التي تُتلى آناء الليل وأطراف النهار ، النصوص التي لها مكانها وزمانها ، النُصوص التي لم تَفقهوا منها سوى ما جَلبتهُ لكم المصلحة ، أفقدتُكم عُقولَكم الحُور العَين حَتى بتُّم تَرونَ الجَنة من مخرة شَيطان يُناديكُم من بَعيد أن تَعالوا إلى الجنان ..

الجَنة يا صَديقي هي في صَدَركَ ، وبثقتكَ بالله أَنهُ أرحمَ الرحمين ، و أنهُ لا فَرق بين عَربي ولا أَعجمي إلا بالتَقوى ، و يَجبُ أن تَعرف بأنَكَ أنتَ لسَت مَيزاناً للتَقوى حَتى تَحكمُ على الخَلق بالإيمَان والعصيان ، اهتم بنَفسكَ أنتَ فقط وأَكرمنا بصَمتَكَ ، تلكَ الجَنة يَا حَبيبي مَعقودةٌ أَقفالهَا بقول الله تَعال :

تلكَ الدَار الآخرة نَجعلُهَا للذينَ لا يُريدُونَ عُلواً في الأرض ولا فَساداً والعَاقبة للمُتَقين ..

الجَنة بحَاجة لنَقاء في القُلوب والأرواح يا صَاح .

عن أَبي بُريدة قال سَمعتُ الأَغر رضي اللهُ تعَالى عنهُ وكَانَ من أَصحاب النبي صَلى اللهُ عَليه وعلى آله وصَحبه وسَلم قَال :

قَال رسَول الله صَلى اللهُ عليه وعلى آله و صحبه وسَلم :

يا أَيهُا النَاس تُوبوا إلى الله ، فإني أَتوبُ في اليَوم إليه مائة مَرة .

رَواهُ مُسلم

التَوبة عَودةٌ ونَدمٌ على مَا مَضَى ، في مَراحل الحَياة تَتخبط النَفسُ خَلفَ قُضبان القَفص الصَدري كَسجينة مكسورة كُلَ رَغباتهَا ، تُؤذي صَاحبهَا وتَقتصُ منهُ ، تُدمى وتُجرح وتَظنُ بأنهَا على الطَريق الصَحيح ، ولكن هُنَاك وَقفةٌ مَعها في كُل نَصٍ مُجردٍ عن كُل مَا هُوَ مُراوغ لهَا :

ـ إنَ النَفسَ لأَمارة بالسُوء ..

سَتُدركُ لا مَحالةَ ذاتَ صَحوة بخشُونة الطَريق الذي سرتَ عَليه آنفاً ، ذَاكَ المَمَر المُعتم بأمواجه الظَلامية ، تلكَ الأسوار المُقَفلة بالسَواد ، آثار المسير الغَيرُ مَرئية ، جُنح وَحل المَعصية ومَرارة مَذاقها ، كُنتَ تَتَذوق حلاوةَ مَاكنتَ تَظنُ بأنهُ حُلوٌ بالفعل ، ولكَن الأمرَ في الوَاقع على عَكس

ذَلكَ ، إنهَا كمَلفاتكَ المُكدَسة على طَاولة حَياتكَ ، مَلفات مُبعثَرة وغَير مُرتَبة ، كُلُ مَا فَيهَا من طَلاسم سَتعرف لاحقاً بأنهَا جَلبت لكَ التعَاسَة ..

الإيمَان هُوَ الحَل الوَحيد لحَل كَافة المشَاكل التي بَينكَ وبَين تلكَ المَحكوم عَليهَا بالأبدية الغَير مُتناهية في جَوفكَ ألا وهي النَفس ، الإيمَان مُرمّمٌ للمَاضي مُنيرٌ للمُستَقبل ، الإيمَان يُحيي الأرواح وهي رَميم ..

تَنطلق هَذه الكَلمة حَيثُ تَجد في فَراغات الذَات لهَا مَكاناً لتَنمو فيه ، تَنمو وتَتَمدد كَدالية عنب تَتَسلق على جُدران الرُوح حَيثُ العُلو بكُل مَا في هَذا الجسَد من تَخبط مَرير ، وإن تَفاعلت معها فيا لسَعادَتكَ الأَبدية ، هُنَا سَوف تَجدُ ذَاكَ الرُكن المُريح الذي تُريح به تَعبكَ وبَحثَك ..

أَنا آسف عَليكَ حين أراكَ في مُستنقع الإيمَان ولا تُجيد السباحَة ، أراكَ تَتَهاوى عَن قُرب مع أنَ السواحل جُلهَا حَولكَ ومع عتمة السَمَاء فَبحر الإيمَان لا يَحتاج إلى منَارة للعائدين ، أنتَ مَنَارة ذَاتكَ وأنتَ ظُلمَتها فَأحكم الوثاق واشدُد على قَلبكَ بمَا تَميلُ إليه الرُوح ..

إنَ الإيمَان أدَاة تَخييرية تَماماً ، كَأي شَيء تَعرفُ خَيره وشَره ، السُم و العَسَل ، أمامكَ هَذان الصنفان فَإمَا أن تَقتُل ذَاتكَ وفي الأغلب تَقتُل الأخَرين بأفكَاركَ ، وإمَا أن تُحيي بهَا قَلبكَ ومن حَولكَ بالهُدوء والرَحمة :

ـ ومن أَحياهَا فَكأنما أحيى النَاسَ جَميعاً ..

فَيجب أَن تُحسن التعامُل مع هَذه المَادة الغَير مَرئية ، أداةٌ رَحمانية بَحتة ، غير أنَّ لهَا آثارهَا الجَانبية التي إن لم تَأخُذ جُرعَاتهَا بمواعيدهَا المَأمورة ، وطَبعاً لكَ الحُرية في تَطبيق لُعبتها النُورانية ، فَأنتَ تَعلم جَيداً بأنَكَ الفَائز الحَقيقي إن رَفعتها مَكاناً عَليا ، وإن أسَأتَ التَصرُف مَعها فقد نَزلتَ من عَينهَا وعَين غَيرهَا مَكاناً دَنياً ..

الإيمان يا عَزيزي لَيسَ مُسكّناً للآلام كَلا ، بل هو مُضَادٌ حَيوي شَديد الخُطورة ، وبحاجة إلى وَعي وعَقل كَامل كَي تحسن التَصَرف مع هَذه المَادة ، سَتتأَخر يَوماً ما عن أَخذ جُرعتكَ ، ستُهمل احترام مَواعيدهَا ، سَتتناسَى قَداسَتهَا ، سَتغفو بَعيداً عنهَا ، سَتبتعدُ وتَعود لهَا ، فَأنتَ لا غنى لكَ بهَا ولا عن غَيرهَا ، سَتعلمُ بَعد أن تَخرُجَ من مُراهَقة الحَياة بأنَ الرُجوع إلى دَولة الإيمَان هُوَ أَفضَل بكَثير من مُخالطَة

البَشَر ، وطَبعاً بَعد أن تَتَلقى طَعنات في الظهر وفي الصَدر أمَامَ عَينَيكَ وخَلفَها ، فَلا يُهم ..

المُهم أن الوَاقع يَقول لا أَحد يَدُوم مع أَحد ..

الإيمَان هُوَ مَراحكَ و سراحكَ من قُيود كُنتَ تَظُن بأنهَا الحُرية التي تَرغبُ بالعَيش بهَا ، نَعم إنهَا حُريتكَ أنتَ التي ابتَدعتها لُتغَطي على غُرورِكَ وشُموخ شَهواتكَ التي لا تُعد ولا تُحصَى ..

و لكَنها سَوف تُحصَى عندَ مُفترق اليأس ، يأسكَ من هَذه الحَياة ، من نَظَرياتكَ المُهترئة ، من تَقلبُكَ المزاجي ، من تَخَطيكَ حُدود ما لا تُدركهُ ، من الغَوص في سرداب الغَيب ، من جُنونكَ الغَير مَنطقي ، من تَلوث مَداخل فكركَ ، من تَعفُن هُمومكَ المُتراكمة ، من إحاطَتكَ بالكاذبين ، من مُخَالطَة المُنَافقين ، من استعصاء الكَشف ، من انسداد النظَر ، و من ذَاتكَ التي جَردتها من لذَة الإيمَان ..

الإيمَان يَا صَالح ..

نُور من لا نُورَ لهُ ، حَيثُ تَركها جُل من تَخبطوا في أَعماق البُعد حتى ظَهرَ الإفراط ، و من تَعمقوا في خَفاياهَا حَيثُ

فاحت روَائح التَفريط ، الإيمان ليس مُرتَبطاً بشخص مَا ، كَلا ..

إنهُ مُرتَبطٌ بكَ أنتَ فقط ، النَاسُ حَولكَ مُجرد "كُومبارس" في فلم حَياتيٍّ قَصيرٍ أنتَ المَسؤول عنهُ ، أنتَ البَطَل والمُخرج والمُنتج والمُصَور ، وعندَ الامتحان يُكرم المَرءُ أو يُهَان ..

هُنَاك كَثير من الضحايا على هَذا الكَوكب ، ضَحايا أَفعالهم وما صَنعت أَفلامهُم ، سَوفَ تَصدم الكُومبارس ، سَيتدخَلونَ في حَياتكَ ، يُوسوسون في أَحشَائكَ ، يُبَادرونكَ بالخُروج عن القَافية ، يَنهونَكَ عن أشياء كُنتَ تَرتاح لَها ، يأَمرونكَ باتَباعهم ، تَسير خَلفهُم مُخدراً ذَاتياً وعَقلياً وقَلبياً ، كَالأعمى لا تَعرفُ أينَ الطَريق ..

أنتَ اخترت هَذا الطَريق ، لم يَضربكَ أَحدٌ على وَجهكَ ، و لم يَشدكَ أحدٌ من يَدكَ ، كنتَ تَظُن بأنَ لكَ دماغاً يُفكر ويُمحص ويُفرق بينَ الغث والسَمين ..

لا أُخالفُكَ بالرأي فأنتَ بالفعل لكَ دماغ ، ولكن لَيس كُل دماغٍ يَعرفُ النُور ..

إنهُ النُور يا صَالح ..

غَيرُكَ يَرى هَذا النُور ظَلام ، والآخرُ يَراهُ وَهماً ، وهُنَاكَ من يراهُ ضَباباً ، وأنَا أَراهُ في صَدركَ يَتربعُ وفي عَقلكَ وفي قَلبكَ يُنَاجيكَ ويُباريكَ على الصَمود نَحوَ الرَاحة..

سَوفَ تَعرف ذَاكَ النُور عندما تُبحرُ في الظَلام وتَبتَعد عن هَدي مَن سَبقَكَ بالإيمَان ، و تَستعرض قواكَ المُهترئة و تَجُز نَحر الحَياة بعدم اللامُبالاة ، ألم تَسأل ذَاتَك ذَاكَ السُؤال:

ـ من أنَا ؟ ..

أنتَ ذَاكَ الذي أَضاعَ إبرتهُ في كَومة القش ورَاحَ عُمراً مَديداً يَبحثُ عنها بكُل غَباء ، كَان من الجَدير به أن يَحرق جَميعَ القَش كَي يَلتَقطها ، ولو كَان فيه ذَرة ذَكَاء لاستعمل مغناطيساً كَي يُخرجهَا ..

و لكن للأسَف رُؤية النُور في هَذا الزَمَان جَريمةٌ يُعَاقَبُ عَليهَا البَشَرية ، وُحوشٌ على هَيئة أُنَاس ، وتَستمرُ في صَخب البَحث مُجذفاً بكُل وسَائل الغَباء ..

كَانَ لا بُدَ لكَ أن تَتَوقف حَيثُ وَجدتَ نَفسَك في أول مُفترق من مَفارق حَياتك ، كنتَ تَظُن بأنَ الخُلود سَوفَ يُشَيدُ لكَ اسَماً أو صُورة ، أَو جَسداً يُعبدُ مَدى الحَياة ، و للأسَف ..

لم تُحسن قيادة ذَاتكَ لأَنَك مَكسو بغَيركَ وبوهمكَ ، هُنَا وبعدَ أن سُلبتَ كُل مَا كُنتَ تَعقدُ عليهِ أملكَ ، تَستَيقظ من دوامَة الانحطاط والانخراط في وَحل الظَلام ، يُوحي لكَ قَلبكَ أن أَبحث عن الرَحمة ، يُوحي اللهُ لنَبيه :

ـ و ما أرسَلنَاكَ إلا رَحمةً للعَالمين ..

سَتعلم بأنَ الله الذي لا تَأخذُهُ سِنةٌ ولا نَوم ما أَنزل هَذه الآية على سَيدنَا مُحمد صَلى الله عليه وعلى آله وصَحبه وسَلم إلا لحكمة ..

إنهَا حكمة الطَريق إليه ، سُرعة الوُصول إلى شَيء يُشبهُكَ ، شَيء يستلُ منكَ ما كُنتَ تَخافهُ ، شَيء يَسحبُ منكَ ثَاني أُكسيد التَخبُط ، شَيء يوقفُكَ أمَام الإمام بكُل احترام و تَقدير..

هُوَ اللهُ الذي رَفعهُ مَكَاناً عَليا ، وكسَاهُ بالهَيبة والمهابة لأنهُ الصَادق الأَمين ابن الأَكرمين ، الهَادي الرَحمة الجَميل ، هُنَا سَتعلم بأن حَياتُكَ كانت نَاقصة من غَيره ، سَتعي بأنكَ ريشة تُحلقُ في الليل من غَير نُوره ، وَحيدٌ أنتَ مَهما جَمعت من بَشَر وأنتَ بَعيدٌ عنهُ ، وعَزيزٌ كَريمٌ في رحابه وقُربه حتى لو عشتَ في عُزلة ..

إنَ مَا نَراهُ في هَذا الزَمان من كَوارث نَفسية ، وقتلٍ وتَشريدٍ وانتهاكٍ وانتحارٍ وخُصوماتٍ ومُشَاكسَاتٍ وظُلمٍ هُوَ البعد عن منهاج الرَحمة أولاً وثَانياً هُوَ الفَراغ ..

كُل يَوم ألتقي بشُبان و فتيات فَارغين ، بالونات تُعجبكُ إن رَأيتهَا ، مُلونَة مُزَركشة تَحسبُ أنهَا مَحشوة فكراً وعُمقاً ، وما إن اقتربتَ منهَا حَتى تنفجر في وَجهَك وتُصدم بالهواء الذي يمَلأهَا ..

فَهذه الطَبقة من الشبان هي مَقسومة إلى قسمَين ، قسَمين لا ثَالثَ لهُمَا ، وإن كَانَ هُنَاكَ ثَالث ، فَالثَالثُ منَبوذ ، إنَ أكثر مَاركة مُسَوقة هَذه الأيام هي لُغَة الإقصاء والإبعاد وتَجاهُل من حَولنا لأنَ فيتامين التَكبُر نَبتَ فينَا قَبل أن تَنبتَ أسَنانُ أَحدنَا ..

قسم العلم ، يَغوصُ به المُبحرين بكلُ وَسائل القُوة منتَهكينَ عَظمةَ هَذا الكَون ومن خَلق هَذا الكَون ، مُستَلينَ ألسنتهُم وسيوفَهم يُريدون مُحَاربة الله حَتى لو إكراهاً واللهُ لا يُحبُ الظَالمين ، فَالنهايات مُرعبة والنتَائج مُدمية وجَارحة لهؤلاء اللفَيف من مُخترقي وُجود عَظمة خَلفَ هَذه العَظمة ،

فَتنشَب بَينهُم الكَوارث والمعارك طَمعاً بالمَادة والقُوة وحتى لو على حسَاب البَشَرية والإنسَانية ..

و من كثرة المنَافذ المَفتوحة في أَدمغَتهم تَجد كُل شَيء مَسدوداً في حَياتهم ، يَعرفُهم البُسَطَاء الذينَ يَستَدلونَ بالبعَرة على البَعير ، وآثار السَير تَدلُ على المَسير ، ألا يَدلُ ذَلكَ على اللطَيف الخَبير ! ..

إنهُ يَدُلُ على أَرحم الراحمين الذي أَتقن صُنعَ هَذا الكَون وآتى من بَعده أُنَاساً جَبارين مُتَكبرين على عَظمة الله و إتقان صُنعه في هَذا الكون المُتناسق ..

نَخافُ من خُروج الشَمس عن مسَارهَا ، نَخشَى من أن تُبتلع مَجرتنا في جَوف مَجرة أُخرى ، نُهلكُ عُقولنَا بالبَحث ونَموتُ شُهداء في مُختبرات الأبحَاث كَي نَصلَ إلى نُقطة البداية أَو النهاية ..

و جَميعُنَا يَعرفُ البداية وكُلنَا نَعرفُ النهاية ، وجُلّنَا يَتَكبر على هَذا الخَالق زَعماً منَا بأنَنَا مُكتشفون وعَباقرة ونَحنُ لا نَسوى رَوثَ الغَنم ، ولكن أَقفُ حَيثُ وَقفَ الحَقُ عندما قَال:

ـ و لقد كَرمنَا بَني آدم ..

و لكنَّ ابن آدم أهانَ نَفسهُ وأنزلهَا مَنازل الرَدى وأذلهَا بمستنقع الوَهن ، فَخرجَ منَا مُنسَلخونَ يُشبهونَ أنفُسهم بالحَيوانَات ، يَهربونَ من الفطرة يَقعونَ في الأمراض النَفسية والعَقلية وحتى الحَياتية ..

حَياتُهم عبارة عن اختراقات كَي يُبهرونَا بعد كُل بَحث لنقول عنهُم :

- وَاااو .. مُنفتحين ..

إنهُ الانفتاح الذي يُغلق كُلَ منافذ الضَياع ، مُنفتحينَ على الخَوف ، يكسوهم الشَيب في رَيعان شَبابهم لأَن الخَوفَ عَرفَ طَريقهُ إليهم ، فَجردَهُم من الراحة وسَلبهُم لَذة النَوم و جعلهم كَعصف مَأكول ، هُمَ من حُرموا من الإيمَان والسَير في النُور ، ظَناً منهُم بأنَ العلم إيمَان ، ونَحنُ أيضاً نَقول بأنَ العلمَ إيمَان ، ولكَنهُ إيمَانٌ مَائلٌ حَد الغَثَيان ..

إيمَان بحاجة إلى تَسوية أَوضَاع قَبل أن تُصَاب الأَدمغة بالجُنون ، ونَرى من كُنا نُطلقُ عَليه عالماً في أحد المَصَاح النَفسية بسبب خُروجه من وَاحة النُور .

و القسم الثَّاني ..

بهَائم الإقصَاء ، المُتعمقونَ في الغَيب ..

مُنتهكو هَيمنة العلم ، و متَغابو البَشَرية ، العَمائم التي لم أعُد أُؤمنُ بهَا ، اللحَى والصُلبان و المَقامات وغَير ذَلكَ من استغباء للعَقل والإنسَان ، الذينَ يَظنُونَ بأنَ الدُنَيا و الآخرة لهُم وأنّ غَيرهُم إلى نيران الخُلود ..

الذينَ عَقدوا حلقَات العلم تَحتَ لواء فَرج المرأة ، و جَعلوا من مَسح الخُفَين فَريقان ، فَريقٌ في الجَنة وفَريقٌ في السَعير ، وأشبعونا خُطباً عن الله واللهُ براءٌ منهُم ومن أهوائهم ، وقَسموا العلم إلى عُلوم دَنيوية وعُلوم اخروية ، وخَدرونا عَاطفياً حَتى أصبحنا نَرى اللهُ بأنهُ مُخيف وهُوَ في الحَقيقة أَرحم الراحمين ..

فَأرسلَ لنا النَبي الأَمين ، كَي نَتعرف على هَذه العَظمة التي أَحبتنا بحق وأَعطتنا ما لا نَقدرُ على رده كجَميل ، جمَيل الحَياة ولَذة العَقل ، فَأصبحَ العقلُ مثَل كُرة القَدم ، يَأتي من شَاء بكذبه وأفكاره العَفنة يَركلُنَا كَيفَ شَاء ، حَتى أضحينا أُضحوكة نَفرقُ بينَ الله و ما أعطانَا من علم ..

إنهُ صَالح الذي عَادَ إلى الله ، جَبل العلم بمحبته لله ، اعترفَ بما أَخذ ، أعادَ الحُقوق إلى أَهلهَا ، سامحهُ الجَميع ، أَخرج وَالدتهُ من حِمص ..

تُحبهُ و تَعيشُ معهُ في تُركيا ، سَوفَ تُصدم عندما ترى لافتة بعَد ست سنوات من العَودة إلى الله قدَ كُتبَ عَليهَا :

ـ عيادة الدكتور : صَالح الكَحيل ، طَبيب عَام .

سَوف تُدهش من العَرض الذي قدمهُ للنَاس تَحتَ لافتة أُخرى قد كُتبَ عَليهَا :

ـ إذا لم يَكن معكَ المَال للعَلاج ، فَتفضل لأنَ هَذا المكان من فَضل الله ..

يَتراكُم عندهُ المراجعون ، يَأُخذ استراحة يَتوضأ ، ويُصَلي العَصر ، يسَجُد ويَبكي ، يَدعو الله :

ـ اللهم أني ظَلمتُ نفسي ظُلماً كَثيراً وأنتَ خَير الراحمين ، فَاحشرني من الحَبيب المُصطفى الذي أنزلتَ في حَقه:

ـ و ما أرسَلنَاكَ إلا رَحمةً للعَالمين ..

يَضَحك على مَا أخلفَ في الأيام الخَالية ، يَبتسمُ للقدر ويَحمد الله على هَذه النعمة التي يَعيشُ بها ، صَالح قد تزوجَ ابنة

أَحد العُلمَاء ، وأَنجبَ منهَا طفلة سَماهَا خَديجة ، وعندما سُئل عن خَديجة قَال :

ـ إنهُ نبي الرَحمة يُحبُ خَديجة ، فاللهم اجعلنا من المُقتَدين بالحَبيب الأَمين من غَير إفراط ولا تَفريط برحمتكَ وكَرمكَ يا أَكرم الأَكرمين ..

أتمَمتُ رواية :

رَحمةً للعَالمين

في بَلَد الحُرية و الديمُقراطية : النمسا ، في عَاصمَة البيانو و الكَمنجَة : فيينا ، حينما نمى فينا حُب الحبيب..

في مَنزلي الأخضر .. السَاعة : 00 : 02 ، ظهراً

من تَاريخ : 26 / مايو / 2018.